



بلاغة الغرب

محمد كامل حجاج

بلاغة الغرب

أحسن المحاسن وقرر الدرر من قريض الغرب ونثره

تعريب
محمد كامل حجاج



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٩٣٩ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٢.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	مقدمة المُعرب
٩	فيكتور هوجو
٢٣	ألفونس دو لا مارتين
٣١	ألفريد دوموسيه
٤٣	أندريه شينيه
٤٧	الكونت ألفريد دوفيني
٥٧	فرنسوا كوبيه
٧٥	إيدمون روستان
٨٩	ألفونس دوديه
٩٥	تيوفيل جوتييه
٩٩	بيير كورنيي
١٠٩	جان راسين

مقدمة العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن أنشأ الإنسان، ومَيَّزَه بِفَضِيلَتِي النطق والبيان؛ ليترجم عما يوحيه إليه الشعور الشريف والوجدان، وصلاة وسلامًا على نَبْرَاس العلم والعرفان، من خُصَّ بالحكمة وفَصُل الخطاب، وأُوْتِيَ من جوامع الكلم ما سحر الألباب؛ حتى ساد قومه مجدًا وفخرًا، وإن من البيان لسحرًا.

وبعد، فهذه نُحِبُّ أَقْتَطِفُهَا من معجز بلاغة الغرب؛ لنرى — معشر العرب — ما أحرزه الغربيون من قصبات السَّبْق في مضمار التحرير والإنشاء، وما لهم من سلامة الذوق وحسن التعبير في الوصف والإعراب عن الشعور والعواطف بما يحس به الوجدان دون كلفة.

يقع شعرهم ونثرهم على الآذان كنغمات الموسيقى بما يشجي السامع من: رقة الوصف، وسلاسة التركيب، وأوانس الألفاظ، وغرر البيان، وبعد الكلام عما تعقد من المعاني، وخلوه من الخياليات المتشعبة والتنقل فيها بما يذهب بالسامع كل مذهب، فيركب متن الشطط، ويصعب عليه الفهم؛ فلذلك يعقله الفكر لأول وهلة دون إمعان وإجهد قريحة.

وقد سلكتُ في تعريب هذه المقتطفات مسلك الأمين حرصًا على المعاني لإبرازها بمشرب الكاتب؛ لنعرف أسلوبه وروحه في الإنشاء، وصغتها في قالب عربي سهل العبارة قريب التناول؛ لأزف إلى الناطقين بالضاد عرائس نظم الغرب ونثره رافلة في الحلل العربية، وعساني أكون أديت بعض الواجب الاجتماعي، وخدمت الناشئة بعمل نموذج لهم للترجمة والإنشاء؛ ليجمعوا بين الأصل والتعريب، ويعلموا كيف يسرون فيه ويصوغون المعاني في

القالب العربي اللائق بها والذوق السليم الملائم لها. وإن ساعدني الحظ وصادف عملي نجاحًا وإقبالًا من معشر قراء العربية، شمرت عن ساعد الجد، واستمرت في عملي هذا ناشراً أجزاءً تباعاً كلما سنحت الفرص وسمحت أوقات الفراغ والسلام.

فيكتور هوجو^١

كان القرن التاسع عشر طفلاً في حَوْلِهِ الثاني حينما تمخضت الأيام بمولود «بيزانسون»، وهو ابن الكونت «سيجيسبير هوجو» من مشاهير القواد والكتاب الحريين، ثم طوحت به في كل شرق وغرب كحبة تَذُرُّوها الرياح حيث تشاء.

نشأ من دم بريطاني ولوريني؛ فأصبح هذا الصبي واسطة عقد شعراء القرن الماضي، بل إمام شعراء الغرب على الإطلاق.^٢

ولما وُلِدَ في عام ١٨٠٢ كان القريض الفرنسي منحطاً تَغَلَّبَ عليه الضعف؛ حتى كاد يُودي به، وقد مضى وقتئذٍ على قتل «أندريه شينييه André Chenier» الشاعر النابغة ثمانين سنين، فلم يبقَ من خيرة الأدباء إلا «شاتوبريان Chateaubriand»، فإنه أتى بنثر رقيق متين تزيينه روح الشعر.

وإذا استثنينا بعض الكتاب مثل: «أندريو Andrieux»، و«كولين دارلوفيل Colin d'Aarleville» اللذين مهرا في الروايات التمثيلية من نوع «الكوميدي»، والشعر البسيط المألوف؛ فإن الباقي من الأدباء لا يصلحون إلا لنظم الروايات المحزنة «التراجيدي»، التي

^١ Victor Hugo.

^٢ كتبت مجلة Je sais tout، في عددها الصادر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٨: إنَّ اثنين من محرريها كتبوا إلى المشاهير من النواخب في العلوم والفنون الجميلة في جميع أقطار أوروبا يسألون كلاً منهم رأيه عن الإمام في: الشعر، والموسيقى، والتصوير، وفن وضع الروايات والعلوم؛ فانتخب بأغلبية الأصوات فيكتور هوجو في الشعر، وبيتهوفن في الموسيقى، وبلزاك في فن الروايات، وباكون في العلوم.

كان يضرب الكل فيها على نغمة واحدة، والملاحم^٢ الساذجة والأدوار المنظومة وغيرها مما تجرد جميعها من سحر البيان وغرر الإبداع، فكان نصيبها من القصاص أن طرحت في زوايا النسيان.

وكان من بين الأدباء في هذا العصر من يحسن الوزن، وتأتيه القوافي طوعاً، ولكن نظمهم خالٍ من روح القريض كـ «ديليل Dérille». ويقال: إنه كان يفتخر في أواخر أيامه بأنه نَظَم في الإبل اثنتي عشرة قصيدة، وأربعاً في الكلاب، وثلاثاً في الخيل، وستاً في النمر، واثنتين في القطط، وواحدة لكل من الشطرنج والنرد والضامة والبليار، وعدداً عظيماً في الشتاء والصيف والربيع وغروب الشمس والفجر؛ حتى ضل في عددها، ولما ظهر الجزء الأول من ديوان فيكتور هوجو المسمى «أود وبلاد Odes et Ballades» الذي بدأ به وهو في السادسة عشرة من عمره سنة ١٨١٨ سنة ١٨٢٨، كان برداً قشياً للبلاغة بعدما يَلِي ثوبها، وبدراً تما في سماء البيان غاب لظهوره كل نجم، ولم يكد يبلغ العشرين حتى أدهش الناس بحميته وحماسته وقوة خياله وغزارة مادته وطلاوة إنشائه وانتظام وزنه وسلاسة تركيبه.

وقد قويت وعظمت هذه الصفات في الأجزاء التالية من ديوانه، وفيها: «الشرقيات» سنة ١٨٢٩، و«أوراق الخريف» سنة ١٨٣١، و«أناشيد الشفق» سنة ١٨٣٥، و«أصوات الضمير» سنة ١٨٣٧، و«الأشعة والظلم» سنة ١٨٤٠.

وكما أنه مَهَّد للشعر سبلاً جديدة، وحل أصفاده^٥ التي رسف فيها حيناً من الدهر، فإنه أتى بمعجزات المنثور وعنوان البيان وآية البراعة في كتابه «نوتردام دو باري Notre-Dame de Paris» سنة ١٨٣١، الذي جمع فأوعى من شتات اللغة، فكان له القدح المعلى^٦ في دولة النثر كالنظيم.

نظر إلى فن التمثيل، وقد هَوَى إلى الدرك الأسفل من الحطة والعوز، فصالح عليه واستطال؛ حتى هَذَّبَه ورفع شأنه وبعثه بعثاً جديداً.

^٢ الملاحم جمع ملحمة، وهي في اللغة الوقعة العظيمة التي يلتحم فيها الجيشان، واصطلح عليها المتأخرون كابن خلدون، وأطلقوها على المنظومات التي تمثل أحوال أمة أو قوم، وتفصل تاريخهم ووقائعهم الحربية.

^٤ بحران من الشعر الفرنسي ففَضَّلنا وضعهما بلفظهما.

^٥ جمع صدف، وهو القيد.

^٦ السهم السابع في الميسر وهو أفضلها، وإذا فاز حاز سبعة أنصاء من الجزور.

ومن مشاهير رواياته التمثيلية التي سارت بذكرها الركبان، وسحبت على غيرها ذيل النسيان، ولم تفارق للآن أعظم المراسح ما وضعها شعراً مثل: «إيرناني»، و«ماريون دولورم» سنة ١٨٣٠، و«الملك في لهوه» سنة ١٨٣٢، و«روي بلاس» سنة ١٨٣٨، و«ليبورجراف» سنة ١٨٤٣ وغيرها، وما كتبه نثرًا مثل «لوكريس بورجيا» و«ماري تودور» سنة ١٨٣٣، و«أنجيلو» سنة ١٨٣٥ وغيرها، وقد كتبها بنظم محكم السبك ونثر متين الحبك.

وقد انتُخب في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٤١، ومُنح رتبة «بيرو فرانس» سنة ١٨٤٥، ثم خاض غمار السياسة إلى أن صار رئيساً لحزب الشمال الديمقراطي وخطيبه الأعظم، ثم حارب ضد لويس بوناپرت، فحملته يد الاستبداد سنة ١٨٥١ إلى بروكسيل، حيث نفته هناك، ثم انتقل إلى جيرسي، ومنها إلى جيرنزي — وهما جزيرتان إنكليزيتان في بحر المانش — ولبت في منفاه ثماني عشرة سنة، ولم يرجع إلى وطنه إلا في سنة ١٨٧٠، حيث برّ بقسمه بأن لا يطأ أرضه ما قامت لعرش الملك قائمة.

ولقد أسعده النفي بنفحات مدهشات البيان، فراق له جو الخيال، وأوحت إليه الموجودة ببدايات البدائ وأحاسن المحاسن؛ فزَفَّ إلى القراء من بنات أفكار النظم والنثر ما خلب العقول وسحر الألباب، فنظم كتابه الذي وسمه بـ «نابليون الصغير»، وكتاب «العقوبات» سنة ١٨٥٣؛ فكان كأفعى تنفث سمًا زعافًا فاغرة فاهها نحو نابليون الثالث، ولم يجزِ يراع كاتب في الحقد والضغن بمثل ما أتى به قلمه في هذا الكتاب، ثم وضع كتاب «المشاهدات» سنة ١٨٥٦، و«سير القرون» سنة ١٨٥٩، وهو من أبلغ ما خطّه بَنان الشاعر. حشر فيها سير القرون الخوالي من أغلب الأمم؛ مما يدل على سعة اطلاعه في التاريخ، وأظهر فيها رقي الأمم من طور إلى طور، وتدرجهم في الكمال، ثم كتاب «البؤساء» سنة ١٨٦٢، وهو نثر وخير ما كتب في درس الإنسانية والحياة الاجتماعية، مما تذوب له القلوب حناناً ورحمة وتذرف لهول يؤسه العيون الجامدة دماً، وما لم يستطع كاتب أن يأتي بمثاله أو ينسج على منواله، و«عملة البحر» سنة ١٨٦٦، و«الرجل الضاحك» سنة ١٨٦٩، و«ثلاث وتسعون» وغيرها.

ولما أب إلى وطنه بعد سقوط المملكة وضع كتاب «العام الأسود» سنة ١٨٧٢، ثم الحلقة الثانية من «سير القرون» سنة ١٨٧٧، والحلقة الثالثة منها في سنة ١٨٨٣، و«تاريخ جنائية»، وقد ذكر فيه حوادث الهيئة الاستبدادية وغيرها من كتب تاريخية، وفلسفية، وقصصية، ورسائل، وأفكار، وخواطر. وصار من رؤساء الحزب الجمهوري،

وكان يطربهم بخطبه الشائقة في العدل والإنسانية والتقدم الأدبي والاجتماعي إلى أن توفي بباريس سنة ١٨٨٥، وهو في الثالثة والثمانين من عمره، ومشى في جنازته ألوف مؤلفة؛ مما دل على عظم مكانته في قلوب قومه وتمجيدهم له.

نابليون الثاني Napoléon II^٧

سنة ١٨١١: عام وما أدراك ما العام؟! ماجت فيه أمم لا يدركها الحصر، وقد أضجرهم الانتظار وفني منهم الصبر. يظلمهم غمام مكفهر. مبتهلين إلى الله أن يستجيب دعوتهم وينيلهم أمنيته.

وكانوا يشعرون أن هذا الملك الواسع الأكناف المترامي الأطراف، يمتد تحت أرجلهم رعباً، ويرتعد خشية ورهباً، محدقين بأبصارهم إلى قصر اللوفر، وقد زمجر فوقه الرعد حتى كاد يدكه كطور سيناء، مطرقين كجواد بصر بصاحبه يقول بعضهم لبعض: ستمخض الأيام بمولود ذي شأن ينتظره هذا الملك العظيم ليليه ويأخذ بزمامه.

ليت شعري! ما الذي أعده الجد لهذا الرجل الذي يفوق قيصر ورومية؟ ومن سيضيف حظوظ البشر إلى حظه فيسعدون بسعده ويشقون بشقائه؟!

وبينما هم يتحدثون إذ انقشع الغيم المربد^٨، وأشرقت السماء رافلة في حلتها اللازمة. يتلأأ في كبدها بدر هذا المولود الذي اختاره القادر؛ ليقبض على صولجان هذا الملك الفخم، فما كان لهذا الشعب الصاحب^٩ إلا أن صمت واستكان لظهور هذا المولود في عالم الوجود.

نُفِخت ريح هذا الرضيع في قبة دار العجزة،^{١٠} فحفقت فيها الأعلام المسجونة، واهتزت كالسنابل حركتها الرياح، وكان صياحه الرخيم هو الذي أطلق من المدافع المتربعة ببابه أصواتها المزعجة.

^٧ هذه القطعة ترجمها المرحوم الفاضل نجيب أفندي حداد بعنوان «المستقبل لله»، ولكنها مخالفة كل مخالفة لهذه الترجمة، وإنني أتوسل إلى القارئ أن لا يتسرع بتوجيه اللائمة إليّ قبل أن يُراجع الأصل الفرنسي.

^٨ المتكاثف.

^٩ من الصخب؛ أي اللغط والجلبة.

^{١٠} دار عظيمة من الآثار المشهورة بباريس، وبها بقايا نابليون الأول.

نفخت الكبرياء بعرنين والده الأشم،^{١١} وكان مطبقاً بذراعيه على صدره ثم فتحهما، تحوط يده ابنه الذي تنبعث من عينيه أنوار أضاءت ما حوله، وارادت عنها كل طرف كليلاً.

ولما عَرَضَ الأب وارث عرشه على رءوس الأشهاد من أمم تابعة وملوك خاضعة، هاجت به شجونه^{١٢} ونظر شزراً وازدراءً لمن حوله من الملوك؛ إذ لم ير غير ابنه كفوّاً لهذه المملكة الشاسعة، كنسر حط من عل^{١٣} فوق قلة^{١٤} صائحاً مستبشراً بصوت ملؤه الكبرياء والعظمة: المستقبل لي وحدي وطوع بناني! كلا ثم كلا، فالمستقبل ليس لأحد بل لله الواحد القهار، ولا تمر ساعة إلا وتودعنا الكائنات. المستقبل سر مكنون، والأرض وما عليها من مجد وسعادة وقوة وتيجان ونصر متنازع لطمع أشعبي حقيق، وهذه المنح كلها عواري^{١٥} كطير حط على دورنا فما هو إلا لمحة ويطير.

مهما بلغ المرء من الحول والقوة، ومهما ضحك وقهقه، أو بكى وأعول لا يستطيع أن يطلع على الضمائر والسرائر، ولا أن يقضي على أحد قبل أجله وساعته.

أيها الخيال الأخرس والطيف المثلث! يا من هو أتبع لنا من ظلنا! يا من يدعونك الغد. إنما الغد حارت فيه الأفهام، وضلت في مفاوزه الظنون والأحلام. يبذر الإنسان السبب، فينضجه القادر غداً؛ فيستحيل من عالم الذر إلى عالم الظهور والقوة. غداً برق محتجب، ونجم مستتر في السحب، وخائن يزيح اللثام، ومنجنيق يدك الحصون والمعازل، وكوكب ينتقل من منطقته وباريس تتبع بابل. غداً تنوب^{١٦} العرش واليوم مخمله، غداً جواد يخوض المعامع مرغياً مزيداً. غداً — أيها الفاتح — تلتهب موسكو في الليل الحالك كالمصباح في يد المدلج. غداً تغطي جثث حرسك القديم السهول والبطاح. غداً واترلو. غداً القديسة هيلانة. غداً الرمس!

^{١١} أي الأنف المرتفع بحسن؛ كناية عن الأنفة وعزة النفس.

^{١٢} الهموم والأحزان.

^{١٣} أعلى.

^{١٤} قمة الجبل.

^{١٥} جمع عارية، وهو الشيء المستعار.

^{١٦} نوع من الشجر؛ يريد تحول عرشه بعد العبث به إلى خشب عارٍ مما كان يُزينه من القطيفة.

إنك لتستطيع أن تطأ المدن بسنابك خيل فرسانك، وتحل مشكلات الحروب بصمصامك، وتسد نهر التاميز والنصر حليفك بحولك وقوتك، وتحطم الأبواب المغلقة بسطوتك وقدرتك، ثملاً بنشوة الظفر، يرنح عطفك صوت نفيرك، ساحباً ذيل النسيان على كل صيت طائر.

أمد الله في أيامك! إنك لقادر أن لا تترك من الأرض ذراعاً، وأن تنزع أوروبا من شارلمان، وآسيا من آل سام، ولكن هيهات أن يخضع لك الغد إلى الأبد.

يا للنائبات الواعظات! لما أخذ شبل هذا الأسد تاج رومية بدل اللعب حتى ذاع شأنه، ولما أظهره أبوه للملأ وجبينه الملوكي يهتز، دهشوا لعظمة هذا الصغير وهيبته. وقد ظفر والده لأجله بوقائع عديدة وفتوحات عظيمة، فجلس بجانب سرير طفله مبتسماً بادي البشر، وقد كان كبانٍ يعرف كيف يؤسس بناءه؛ إذ أجهز على الدنيا بضربة معول فأقبلت خاضعة طائعة حسب أمانيه.

ولما أتمَّ الوالد ما أعده ليمهر الطفل الحقير بالعظمة الدائمة. هياً له قصرًا وطيد الأساس متين الدعائم؛ ليحفظ حياة ابنه من العوادي والغوائل.

ولما ظمئ النسر وجد أمام فرنسا كأساً مفعمة^{١٧} بخندريس^{١٨} الأمل، وقبل أن يدني هذا السم المموه من شفثيه ويذوقه انقض فارس من القوزاق على الطفل انقضاض العقاب على الظبي، وأردفه خلفه على الجواد، وفر كالسهم قذفته القوس.

وفي ذات ليلة كان المضرحي^{١٩} صافاً^{٢٠} في القبة الزرقاء إذ اكتنفته ريح صرصر عاتية كسرت جناحيه، فهوى إلى الغبراء هُوي الصواعق، وانقضت عليه الذئاب الضارية عند وكنه تتقاسمه وتنهشه بأنياب حداد، فكان من نصيب إنكلترا القشعم^{٢١} والنمسا الهيثم^{٢٢}.

^{١٧} اسم من أسماء الخمر.

^{١٨} مملوءة لحافتها.

^{١٩} النسر العظيم.

^{٢٠} من صف الطائر إذا بسط جناحيه في الهواء، وسكنهما فلم يُحركهما كما تفعل الحدأ والرخم.

^{٢١} النسر القوي.

^{٢٢} فرخ النسر.

لم يغب عنك ما فعل بهذا العظيم الهائل، فقد زج به في أعماق السجون ست سنين وراء أفريقية والبحار.

النفي ممقوت كافر! كان هذا البطل العظيم متربعا في قفصه، منحنيًا تلعب أسنانه بركبتيه، ولو كان قلب هذا الطريد خلواً لكان أنعم بالألأ، ولكن قلوب الآباء لهي قلوب الأساد؛ إذ كان ابنه آخذًا بشغاف قلبه، ولم تُبق له الدنيا إلا ذخيرتين في عرينه: صورة ابنه وخريطة الدنيا، وبعبارة أخرى مرمى فكره ولبه وجميع قلبه.

وفي المساء كان يسرح الطرف في مخدعه؛ إذ كانت تدور في رأسه الصلعاء أعماله وفتوحاته الماضية، وكان السجانون والديادبة له بالمرصاد ليل نهار ليقروا ما يرتسم على جبهته من الفكر والآمال.

ما كان يفكر ساعتئذٍ في ملحمة كتبها بظبة حسامه؛ إذ يصف أركول وأوسترلنز ومونميراي.^{٢٣} لا ولا الأهرام وباشا القاهرة وصافناته الجياد التي عضضن صدور خيله. لا ولا الجلل والمدافع التي لبثت تحت قدميه عشرين سنة وأذكت الوغى بقتامها وسحبها السود، ولما هبت ريحها على هذا اليم الهائج كانت الأعلام الخافقة مائلة في الملحمة الشعواء. لا ولا مجريط^{٢٤} أو قصر الكرملين^{٢٥} أو الفنار، لا ولا موسيقاه تعزف في الصباح لإيقاظ الجند. لا ولا جنوده المعسكرة في السهول من خيل ورجل بملابسهم الحمراء كزهور أرجوانية نابطة في حقل من الحنطة.

بل كان شغله الشاغل عسجد شعر طفله الجميل، وورد خدوده وهو نائم مطمئن بفم يكاد ينطبق وهو كالشرق في بهائه وحسنه، وقد انحنت عليه مرضعة متلهلة تلقمه ثديها ضاحكة.

رزح الوالد تحت أثقال همومه وشجونته، وقد تيمهُ حب ابنه، فأسند بمرفقيه إلى كرسيه، وهاجت بقلبه تأوهات مستعرة؛ فتفجر الدمع من آماقه واسترسل على خدوده. بوركت^{٢٦} من طفل مسكين أثلجت شعوب رأسه، وإنك وحدك القادر على تسلية أبيه وعزائه ملك ضاع وأفلت من بين يديه.

^{٢٣} الوقائع الحربية التي انتصر فيها نابليون.

^{٢٤} الاسم العربي لعاصمة إسبانيا المعروفة بمديرد.

^{٢٥} كان هذا القصر مقرًا للقياصرة بموسكو.

^{٢٦} انتقال في الكلام، والمتكلم الآن هو: فيكتور هوجو.

أناخ الدهر بكلّكـله على النسر وفرخه فألحقهما بخبر كان، فـيا له من زمان قاس ابتداءً
بقهار الجبابرة، وغلاب القياصرة! ثم ختمه بعظام رفات نخرة، وقد كفت عشر سنين
لنـسج أكفان الأسد وشبله.

احتوى اللحد مجداً وصباً وكبرياء، والمرء يود لو يترك له الموت خلفاً، ولكنه لا يسمع
له نداءً، وكل عنصر يرجع لأصله: فالهواء يأخذ الدخان، والأرض الرماد، والنسيان الاسم.

يا للهيـاج والاضطراب الذي أجهله، وأنا أحقر الملاحين إذ لا أدرك كنه ما يعملـه القادر في
الغياهب تحت اللجج^{٢٧} الهائجة الحاقدة عليك الهازئة بك. وأسرار الخالق غامضة يضل
فيها النهى. ليت شعري أهذه الأمواج الثائرة، وأصوات هذه الحفر المرة المزمجرة، وهذا
التيار الدوار بمخالبه الهائلة، والبرق ولألاؤه، والرعد وقصفه ودويه، أليست اللهم صالحة
لدرر البحار؟!

وهذه الأنواء والعواصف المخوفة لترتعد أمامها الخلائق من أمير وحقير. يا لليم من
أعمى أصم أضل من شعب ثائر هائج، وماذا ينفعك نشيدك يا شاعري وأغانيك التي
يمليها عليك الخيال ويردها الصدى في هذه اللجج الحائرة المضطربة، وقد صمت آذانها؛
فلا تسمع لك نداءً ولا غناءً، ويذهب صوتك صرخة في وادٍ.

وأنت أيها الطير المسكين الذي تتقاسم ريشك الرياح، وأنت تغني فوق زبد ذلك
الجبار العتيد على سارية جارية^{٢٨} ضلت سبيل النجاة! ليل طويل. وعذاب مستمر، وسماء
مكفهرة لا يرى بها ركن رائق، وقد اختلطت الأشياء بالناس اختلاط الحابل بالنابل،^{٢٩}
وهووا في مهاوي الفناء، وابتلعهم الخضم الغشمشم فكانوا من المغرقين.

كل من عليها من ملوك وأمراء ونابليون العظيم والصغير طوتهم الأرض في جوفها
طي السجل للكتب، ومحتهم كما تمحو اللجة اللجة، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ
رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

^{٢٧} جمع لُجَّة، وهي الأمواج.

^{٢٨} سفينة.

^{٢٩} مأخوذ من المثل العربي: «التبس الحابل بالنابل.» أي سدى الثوب باللحمة، وأما الواردة في المثل
الآخر: «ثار حابلهم ونابلهم.» فمعناه الصائد بالحبال؛ أي الشبكة والرامي، ويضرب الأخير للقوم إذا
تقلبت أحوالهم، وثار بعضهم على بعض.

الغريق Le Naufragé

وأسفا للمرء المسكين تلعب به الكائنات والعوالم لعب الشمال بالشجر، ثم تفترسه كالسنور يلعب الفأرة ريثما تنبه منه شهوة الطعام، ثم يمزقها كل ممزق بأنياب حداد وأظافر كالأسنة. تصعقه الزرقاء^{٣٠} وتبتلعه الغبراء^{٣١} ضعيف تعس منكود، ولَدَ محاطًا بنحس يثقل كاهله، ويُحني عاتقه، يسترشد عقله فيضله ويغره، وإن أبرق له الإلهام ببعض أشعة ضئيلة ليهتدي بها في حنادس ضلاله، أدركها القضاء الغامض فطفق يجالدها وتجالده حتى تنطفئ وتنعدم.

أنعم النظر في البحر، واعطف على رابية من الصفا ناتئة من الماء فوقها كوخ حقير لصائدي الأسماك. عرشه من بقايا السفن التي حطمتها الأمواج الثائرة، يحيط به الماء إحاطة السَّوَار بالمعصم، وتضمه اللجج ضمًّا عنيفًا كالأفعوان^{٣٢} يلتوي على فريسته ببأس حتى يكاد يهشم منها الأضلاع، تود لو تزعزع الصخر من مكانه لتفترس الصائد.

انكمش هذا البائس الضعيف في كوخه، فاصطلحت عليه الأنواء والأعاصير؛ فلم يستطع أن يبرح مكانه ليكدح لرزقه. عظم واتسع أمامه المحيط لينصب له شراكه. اكفهرت السحب فخاف منها كل نسر قشعم، واسودَّ من الفضاء الإهاب، ثم أومض البرق، وقصف الرعد، وصفرت العواصف، وهاجت الأمواج، وطفقت تحطم في جدار هذا المنكود، وما وراء هذا الفضاء وعظمته والليل وظلمته إلا الحتف المميت.

ماذا تفكر أيها الشقي البائس لتنجو من مطاردة هذه العوالم الحاقدة عليك وأنت عدوها الألد؟ أنتخذ لك نفقًا في الأرض أم سلمًا في السماء؟! أترك تستطيع الصعود وقد حالت دونه العواصف والأنواء، وأنتى لك وأنت ترتعد مكانك من هول المنظر؟! وإنِّي لا أخالك إلا مقبورًا ضليلاً طريداً. ليت شعري كيف تنازل هذه القوى العظيمة التي ما لها من نفاذ وأنت أسير حفرتك؟!

حسبك دفاعًا مع العظمة التي أقبرتكَ في كوخك، وأهاجت عليك السماء وما حوت الأرض وما وعت حتى اغبرَّ وجه الكون عليك أسفًا، وأظلمت الدنيا حدادًا؛ فاخضع أيها الغريق للقضاء واستسلم لهذا اليم الجبار العتيد.

^{٣٠} السماء.

^{٣١} الأرض.

^{٣٢} ذكر الأفعاي.

وهذه الشمال^{٣٣} العاتية التي أوشكت أن تقوض أركان مأواك، وهذا الوابل الذي كاد يجرف ذراك.^{٣٤} وتلك الغياهب التي تهلع لها القلوب تبذل الوسع لمحوك وفنائك، وهذا الليل المقبل بالويل الذي ترتعد منه رعباً سيُصب فوق رأسك الأعاصير الهوج^{٣٥} مع الظلمات؛ فاجمع أعضائك والتصق بالأرض، وطأطئ رأسك لما يهب فوقها من العُلا دون أن تسأل السماء المعتمدة عن السبب، ودع الهلاك يسيل فوق أعضائك التي تتلجت من الهول؛ إذ لا قوة لك ولا حول.

إن للرمال لَيناً خائناً كلين النساء

Pour le sable comme pour la femme il y'a une finesse perfide

يُشاهد في بعض المواطن من شواطئ بريطانيا الفرنسية واسكتلندا أن المسافرين أو الصائد يأخذ طريقه في مستنقع بعيد عن الشاطئ، لا يكاد يظهر مأوه على الصعيد^{٣٦} فيلاحظ بغتة أنه منذ هنيهة يحس بثقل قدميه، وأن العراء^{٣٧} تحتها كالفار^{٣٨} تلتصق به نعلاه، بيد أنه لم يصادف بللاً في طريقه ينذره بما يضمّر له من السوء هذا الرمل الناعم الذي يفوق في الفتك خضراء الدمن،^{٣٩} وكلما خطا خطوة غارت قدمه قليلاً وتركت أثراً لا يلبث أن يمتلئ ماءً.

نبح هذا الماء لينذره بسوء المنقلب، ولكن أسبل القضاء على عينيه سترًا فلم يبصره. أمامه الشاطئ الرحب سهل ساكن لا يفرق بين صلبه ورخوه، فأخذ يواصل سيره ليبلغ الشاطئ، كاد يعتريه القلق، ولأي أمر يقلق؟ غاية ما هنالك أنه أخذ يشعر أن قدميه

^{٣٣} ربح الشمال.

^{٣٤} بمعنى البيت.

^{٣٥} جمع أهوج ويُقال: إعصار أهوج، وريح هوجاء، وهي التي لا تستوي في هبوبها، وتقتلع البيوت.

^{٣٦} وجه الأرض.

^{٣٧} المكان المُتسع الذي لا سُرّة به.

^{٣٨} الزفت.

^{٣٩} مأخوذ من الحديث الذي ذهب مثلاً: إِيَّاكُمْ وخضراء الدمن، أراد بها «المرأة الحسناء في المنبت السوء». والدمن جمع دمنة، وهو ما تُدمنه الإبل والغنم من أبقارها وأبوالها؛ فينزل عليه المطر كلاً قوياً نضراً؛ لأنه امتص هذه الأسمدة فتأكله الأنعام؛ فيضرها ويمرضها.

تزدادان ثقلاً كلما خطا خطوة، وعلى حين غفلة يجدهما غائرتين في الرمل أصبعين أو ثلاثة.

أوشك أن يشعر الآن بضلاله؛ فألقى عصا الترحال ليبحث عن الطريق الأمين، ثم نظر فجأة إلى قدميه فوجدهما غائصتين في الرمل. نزعهما راجعاً القهقري، ولكنهما غابتا ثانية إلى الكعبين. تخلص وارتمى يسرة فأخذه الرمل إلى نصف ساقه. انتشلهما وانطرح يمينه، فغاص إلى ركبتيه. تحقق الآن من ضلاله فسقط في يده، وكاد يقطع سبابته من شدة الندم. عرف أن قد غره السراب، وتقطعت به الأسباب، فوقع في حباله هذا الوسط الهائل الذي لا تثبت عليه الأقدام، بل لا تستطيع أن تسبح فيه الأسماك.

يجار الكاتب في تسميته، ليس ببر ولا ببحر، أخذ يفكر في سبيل للنجاة، فرأى أن يطرح حقيبته كالسفين، أخذها الموج من كل مكان، فقذف الركب عرض البحر ما تحمله من كل مرتخص وغال لينجوا بأنفسهم. جعل يعالج النجاة وقد أعيته الحيل، فابتلعه الرمل إلى ركبتيه. طفق يصيح مستغيثاً مشيراً بمنديله، ولكن الرمل مستمر في اختطافه. فإن كان الشاطئ مقفراً، والديار بعيدة، وعدم النصير؛ فقد حم القضاء، وذهب صرخة في وإد فريسة لهذا القبر السحيق، مستمراً في هويه البطيء في جوف الأرض، التي لم تمهله وابتلعه واقفاً حراً في عنفوان صبوته وشرخ شبابه، كلما عالج وقاوم واشتد في صياحه وصراخه أسرعت الأرض في ابتلاعه.

بخل الثرى بالتعجيل بالتقامه ليترك له من الوقت ما يكفيه لوداع هذا العالم ليزداد حسرة على حسرة ومصائباً فوق مصاب. أخذ يسرح الطرف، فرأى أمامه الأفق والأشجار والرياض الزاهرة ودخان القرى يتصاعد كالسحب وشرع السفن الماخرة في عباب البحر والطير الصادح والشمس المشرقة والسماء اللازوردية.

وهذه الرمال لهي القبر خرج من بطن الثرى على شكل مستنقع خفي ليختطف الأحياء الأصحاء.

يحاول هذا التعس الوقوف والقعود والاستلقاء بغير طائل. بل كل حركة يفعلها تزيد في غرسه، فيزأر كالأسود وينهب الأرض بذراعيه من اليأس، حتى إذا التقمه الرمل إلى صدره رفع ذراعيه وزاد زئيره. ينشب أظافره في الرمل، ويتكئ على مرفقيه لينسل من هذه الهاوية، ولا يزال الرمل حتى يصل إلى كتفيه ثم إلى عنقه، فلا يرى منه إلا الرأس، لم يبقَ منه إلا فم يصيح ويستغيث، ولكن حنق عليه الرمل فألجمه وسده؛ فلا تسمع له

همساً ولا لمساً. بقيت عيناه تتوسلان بذرف العبرات، ولكن سئم منهما الرمل فأقفلهما، وصار يتخبط في ليل أليل، بقي منه شعر يلعب به الهواء، ثم خرجت من الرمل يده، واختلج بعض خلجات فاضت بعدها روحه فكان من الهالكين، وإن هي إلا هنيهة التأم فيها الرمل، وعاد كما كان سوياً، وطوت الأرض في جوفها بائساً كأنه لم يك شيئاً.

طرفة من الموسيقى Un Peu de Musique

أرعني سمعك، وانظر هذا الغاب، وأصخ^{٤٠} لتغريد الطيور في أوكارها المحجوبة عن الأبصار، وهذه الجلبة تقترب منا، من ضحك، وأصوات، ووقع أقدام منبعثة من أعماق هذه الأدغال السحيقة، وقد رمى البدر لألاءه الفضّي على سوادها، وفيها يُسمع رخيم نغمات مظاهر جبال «انسبروك»، التي تمتاز بجلجل مقبضها التي ترن فيه حبة من الرمل، فيختلط هناك صوت الإنسان بهذه النغمات مما يحدث أشبه بلحن مبهم. هيا إن أردت أن ننتيه في عالم الأحلام، فنركب جوادين من حسان الخيل المطهمة، وإنك لتجذبين إليك قلبي إذ أريد أن أنتشلك من بين أسرتك.

نحن سائران يطربنا شجي شذو العنادل^{٤١} في هذا الغاب إذ أنا سيدك وفريستك، فلنسافر فقد اقترب النهار من الرحيل، وسيكون جوادي الفرح وجوادك الحب، وسيسيران جنباً لجنب ورأساً لرأس، وسنطعمهما في رحلتنا هذه الشائقة قُبلاً بدل الشعير، وإنهما يترافسان إذ يضرب فرسي برجله في أحلامي، ومهرك يرفس في كبد السماء، ونحن في سفرتنا هذه في حاجة لرحل يتركب من دعواتنا وسعادتنا وبؤسنا والزهرة التي في شعرك الجميل.

خيّم الظلام واسودت أشجار البلوط، وقد ضحك منا الشحرور ساخرًا من وسواس^{٤٢} السلاسل التي ربطت بها قلبي، وليس الذنب ذنبي إن لم تهمس إلينا الأدغال^{٤٣} والأطواد، ونحن سائران متكاتفين قائلة: فلنحب.

^{٤٠} من أصاخ: استمع وأنصت لصوت.

^{٤١} جمع عندليب، وهو البليل.

^{٤٢} صوت الحلي أو ما شاكلها.

^{٤٣} الغابات.

كوني لينة حنونة. فما أبهج الغاب المبلل وقد نجيت^{٤٤} أغصانه على أجمل شكل!
أرى الفراش يتبع أنفاسك الشذية، وطيور الليل الحواسد يفتحن عيونها المستديرة
وقد أكمدها الحزن والحر،^{٤٥} وقد أملن آنيتهن مبتسمات في المغاور متسائلات: «هل
أصبنا في عقولنا؟» فهذا «لياندر»^{٤٦} وهيرو» إذ انسكب ما حملناه من الماء، ونحن منصتات
لحديثهما الشجي.

فلنعرج على النمسا، ونستقبل سنا القمر بجباهنا، وسأكون عظيمًا وأنت غنية، حيث
ربطنا الحب بعُرى متينة لا انفصام لها، ولنسر على الأرض بمهرينا الجميلين، ثم نظير
في الفضاء بل في الأسرار بل في الذهب، ثم نعوج بالخان وننقد صاحبه أجره من ابتسامك،
وناهيك بابتسام العذارى ومن سلامي، وحبذا سلام التلميذ، وستكونين سيدة وأكون
«كونت»، وسيفتح قلبي لما ستقصينه من الحديث، كما تتفتح الزهرة من كمها ونحن
نسامر نجوم الليل المتألقة.

النغم شجي يتردد صداه تحت الخمائل^{٤٧} التي ازرققت من لألاء القمر، ثم يضعف
اللحن فينعدم النغم ويخمد صوت الصاحح، كطير حطَّ وسكن صامتًا.

أما وقد وضع شفتي Puisque J'ai mis ma lèvre

أما وقد وضعت شفتي على كأسك الدهاق^{٤٨} وأسندت بجبهتي الشاحبة بين يديك؛
فاستنشقت عرف زفير روحك الشذي الذي غيب في بطون الغياهب.
وحيث أسعدني الجد بأن تصيخي إلى الكلمات، التي بها تنكشف أسرار القلب
الغامضة، ورأيت ثغرك يضحك فوق ثغري، وعينك تبكي فوق عيني، وشاهدت شعاعًا

^{٤٤} من نجوت الشجرة؛ أي شذبتها وقلمتها.

^{٤٥} اخترنا لفظة الحور في ترجمة Nymphes، واعتاد أغلب الكتاب على ترجمتها بالعذارى، فلا يُفرَّق
القارئ بينها وبين الآدميات، وهي في خرافات اليونان آلهة إناث جميلات كنَّ يعشن في الغابات، والمغاور،
وحول الماء.

^{٤٦} من خرافات اليونان أنَّ شابًا من أبيدوس أحبته هيرو كاهنة الزهرة إلهة الجمال، وغرق في أيلليسيون،
وصار يُضرب بهما المثل في الحب.

^{٤٧} ما تكاثف والتفت أغصانه من الأشجار.

^{٤٨} الطافحة بما فيها من الشراب.

يلمع فوق رأسي من كوكبك الدري الذي احتجب، وبصُرت بورقة من الورد نُزعت من
أيامك وسقطت في لجج حياتي؛ فالآن أستطيع أقول للأعوام التي تكر: مري وسيري
فلست أخاف الشيخوخة، واذهبي بأزهارك الذابلة فإن لي في الروح زهرة ناضرة يعجز
الكل عن اقتطافها، وإن اصطدم جناحك بكأسي التي أرتوي منها فلا يُسيل منها شيئاً
وإن ملأتها حتى طفحت، وإن روعي لكثيرة النار وأنت خلو من الرماد، وبقلبي من الحب
أكثر مما عندك من النسيان.

ألفونس دو لا مارتين^١

نابغة من شعراء الفرنسيين ولد بماسون سنة ١٧٩٠، وبدئ بتهديبه في قصر أبيه ببلدة «ميلي» تحت رعاية أم حنون لم ترد منه إلا أن يكون مستقيمًا طيبًا، وبعدما أتم دراسته في معهد اليسوعيين خرج من بلده سائحًا متجولًا في إيطاليا وسويسرا سنة ١٨١١، ومكث فيهما سنتين إلى أن سقط عرش الملك، ورجع فانتظم في سلك الحرس، ثم ترك الخدمة عندما أسس «الريستوراسيون^٢ الثاني»، وبعد بضع سنين عاشها بلا انتظام وضع في سنة ١٨٢٠ كتاب «تأملات الشعر الأولى»، التي أعلت شأنه ورفعته إلى مصاف فحول الشعراء، ونشر بعده بثلاث سنين «التأملات الجديدة»، ثم «موت سقراط» و«آخر غناء الحج» و«شيلد هارولد»، وفي سنة ١٨٢٩ ظهر مؤلفه «الانسجام الشعري والديني»، وفي سنة ١٨٣٠ انتُخب في المجمع العلمي الفرنسي، وبعدما تجوّل في الشرق بترف ورفاهية عُيّن نائبًا في مجلس النواب؛ فلعب دورًا عظيمًا في الخطابة والشعر، ولشهامته وعلو أفكاره تبوأ منه المحل الأرفع.

ثم وضع تبعًا «رحلة الشرق» سنة ١٨٣٥، و«جوسلين» سنة ١٨٣٦، و«هبوط ملاك» سنة ١٨٣٨، و«التفرغ للقريض» سنة ١٨٣٩، ثم عرج على التاريخ فوضع كتاب «الجيرونديين»^٣ سنة ١٨٤٦، وإن كان كثير الخياليات، لكنه آية في البلاغة ومن الكتب الخالدة.

^١ Alphonse de Lamartine

^٢ هو مدة حكم أسرة البوربون من سنة ١٨٢٤ لغاية سنة ١٨٣٠، والثاني منه هو المدة الأخيرة.

^٣ حزب سياسي ظهر مدة ثورة سنة ١٧٨٩.

وبعد قليل كان في رأس الحركة الثورية، ولما أسست الجمهورية الثانية كان عضواً في الهيئة الحاكمة المؤقتة ووزيراً للخارجية، وقد حازت الخطبة التي ألقاها في ٢٥ فبراير ضد الثورة استحساناً وشهرة.

ووجد نفسه في ١٥ مايو عاجزاً عن مقاومة الجمعية العمومية، وقد أجهزت عليه أيام شهر يونيو، فلم يحز في الجمعية التشريعية إلا انتخاباً جزئياً، ثم أبعده استبداد شهر ديسمبر عن السياسة نهائياً.

وأشهر مؤلفاته بعد سنة ١٨٤٨ «المسارّات» سنة ١٨٤٩، و«جينفيف» و«نحات أحجار سان بوان» سنة ١٨٥١، و«جرازيلا» سنة ١٨٥٢، و«دروس علوم الأدب» سنة ١٨٥٦.

وكانت أواخر أيامه كلها بؤساً متواصلًا، وعاقبه كده واجتهاده بالفقر المتواصل، وألجأه نكد الأيام لأن يقبل من الحكومة الملوكية ٥٠٠٠٠٠ فرنك هبة يعيش من ريعها سنة ١٨٦٧، ومات بعدها بسنتين سنة ١٨٦٩ في دار بباسي «من ضواحي باريس القديمة» التي منحها من مدينة باريس.

وكان كتابه «تأملات الشعر الأولى» لفرنسا شعراً جديداً خرج من صميم فؤاد الشاعر، حاوياً لدقة الصناعة وحماسة اللهجة وسلاسة النظم، تَرَجَمَ فيه عن انفعالاته وآلامه غير ما حوى من المباحث الفلسفية والدينية، أما كتابه «الانسجام الشعري والديني» فيعوزه كثير من صفات السابق، ولقد بهر الناس بكتابه «جوسلين»، وهو رواية نظمية من أبدع ما كتبه، وإن كان انتقد في بعض مواضع منه لتقصير في صوغ القريض، فإن عدداً عظيماً من صفحاته كان نموذجاً للنظم ومثالاً للبلاغة والفلسفة. وأما مؤلفه «التفرغ للقريض» فإن العيوب تشوبه من كل ناحية، وهو غزير المادة عظيم الفكرة، ولكنه ضعيف الصياغة وبه بعض قطع رقيقة العبارة دقيقة الإشارة.

وقد انتقده أحد الأدباء العصريين «المسيو لانتيلاك» في كتابه «علوم الأدب الفرنسية»؛ فأنحى عليه بمر الانتقاد، ولكنه مصيب في رأيه، حيث قال: «كان لا مارتين نائباً وخطيباً، ولكنه ليس بالرجل السياسي، وكان في آخر عهده بمجلس النواب يجلس بينهم وكأنه في عالم آخر، ويتكلم ويذهب قوله من النافذة أدراج الرياح، ومؤرخاً وليس من فرسان ميدان التاريخ، وروائياً كثير التكلف دون أن يكون له صفة في الفن، ومنتقداً وليس للانتقاد أهلاً، وناثراً ولم يوهب سلامة الذوق في النثر، ورغماً عن تقبله في جميع هذه الفنون، فإنه لم يتقن غير صناعة القريض التي امتاز بها وحدها، وبرز فيها على الأكثرين من فحول الشعراء.»

كلب المنفرد Le Chien Du Solitaire

لهفي على من يلج داره القفرة الموحشة، ولا يرى عند اقترابه نافذة مفتوحة، أو تحدته نفسه بمن يلقاه عند قدومه بالإيناس والترحاب، أو يحفل به من أخت أو حليلة أو أم يرقبن عودته رقة الأعياد، ويستطلعن بالطلائع والرواد، ويعددن خطواته، ويتهللن بشرًا وفرحًا عند إقباله حتى تكاد جدران البيت تنتعش وتدب فيها الحياة لتكلأه^٤ بصنوف الوقاية والحنان.

شتان بين سعادة هذا وشقاء وحيد منفرد يدخل ذراه صامتًا؛ فلا يسمع وقع خطوات تلقاه أو صوتًا يرن في أذنه، أو يجد فردًا يشاطره آلامه ويقاسمه شجونه غير هذا الكلب الودود القديم الذي ينبح حينما يسمع خطاك. ولا قلب يفكر فيك وينتظر مجيئك سواه. وعينه التي تشاهدك في حلك وترحالك وإن كانت لا تستطيع البكاء، لكنه حينما يراك باكيًا يفهم حالتك؛ فيكاد يتفطر منه القلب رحمة وحنوًا لك، لا يرفع عينه من مرمى نظرك، ولا يحولها عنه، وإن غبت أصبح حائرًا يقلب طرفه في أنحاء البيت كأنه ينشد ضالة. وإن هذا ليأخذ بمجامع القلوب، بيد أنه من الغرابة بمكان.

أيها الكلب الأمين! إن الله يعلم ما بيننا من البون الشاسع والفرق البين بين إلهامك وعقل سيدك، وهو وحده الذي يدري سر ارتباطنا. حياتك في النظر إلى سيدك وموتك في موته، وأي شفقة وحنو مُنِحَتَهُما من الخالق حتى إنك لتحب من يكرههم جميع الناس؟!

وإن كنت — أيها الحيوان — راقدًا في مواطئ النعال، فلا أذكر أن قدمي مستك يومًا ما احتقارًا، كما أنني لم أزجرك قط بكلمة تجرح حنانك ورأفتك، لم أرغب عن ملاطفتك أو أمل منها، وما برحت محترمًا طبيبتك وإخلاصك اللذين لا يوصفان، وحامدًا الخالق على هذه المنحة التي أودعها فيك وجعلك بها.

وكما ينبغي لنا أن نحترم أحقر مخلوقات الله أجد منك بجامع الخلقة والعواطف الشريفة مخلصًا وصديقًا حميمًا.

وحينما تقع عينك على عيني تتناجى النواظر وترجم عن القلوب، وإن ألم بي السهاد، وتجاوى جنبني عن الوساد، وأنت بجانب سريري بالمرصاد، يكفي لإيقاظك نَفْسٌ مضطرب مني.

^٤ من كلاً كلاءة: حفظ وَرَعَى الشيء.

تقرأ شجوني في عيوني الكسيرة، وتبحث عن همومي في ثنيات أسرة جبيني، وتجتهد في تسليتي بمداعبتني عاضاً بلطف يدي المتدلّية بجانبك.
وعينك كالمرآة الرائقة إذا واجهتها لا يلبث أن يرتسم فيها حزني وفرحي، ونفسك شريفة عالية، وحبك لا تدركه العقول.
لست في القلوب شيئاً وهمياً تحتقره العواطف، أو جسماً حياً تحركه الملاطفة، يخدع الناظر بحركاته وتصنّعه الوداد والرفق.
وحيثما تنطفئ هذه العواطف الشريفة من عينك لا أعلم في أي سماء تنشر وتحشر، ولا ريب أن الإنسان والنبات لا يموتان وتنعدم منهما الروح، بل يميتهما الخالق زمناً ما ليبعثهما بعد أمد، ويجمع بين الأرواح وأجسامها، وقدرته عظيمة تسع جميع الخلائق وسنتحابٌ في الآخرة كعهدنا في الدنيا.
ومهما كان البون^٥ عظيماً بين الإنسان والعجاوات والنباتات، فإن الحب المتبادل بينه وبينها سيخلد ولا يتغير في الدار الآخرة، كما أن القادر لا يطفئ نوره الذي يتلأأ في نجوم الليل الشائقة، وكذلك نظر هذا الكلب الأندلسي الفاتر الذي يشف عن الحنو والشفقة والأمانة، وهو الذي كان يقود الأعمى الفقير وأودى حزناً على لحده.
تعال أيها الصديق الحميم الذي يأنس ويضطرب من وقع أقدامي وأنا داخل البيت، ولا تظن أنني سيحمر مني الوجه خجلاً أمام الخالق لحبي لك، هيا جفف مدامع عيني المغرورة بأسانك، وأدن قلبك من فؤادي لنتمتع بحبنا ونمثل برحيقه.

L'Isolement العزلة

طالما كنت أجلس في الجبل تحت ظل شجرة من البلوط، وقد خيم الحزن على صدري، فكنت أسرح الناظر في السهول التي نشرت أمامي أحاسن محاسنها يتلو بعضها البعض، وقد أخذت زخرفها وأزَيَّنت وأنبئت من كل زوج بهيج، وقد آذنت ذكاء بالغروب مرتدية حلتها الصفراء تعلوها الكأبة، ولا أدري إن كان ما ألمَّ بها توجعاً ورحمة لي أو من ألم البين والفراق.

^٥ الفرق.

أمامي النهر يزمر بأماوجه الزاخرة المزبدة، وينساب كالأفعى وسط الرياض،
وهناك البحيرة الساكنة كالمرأة الصقيلة، وقد ارتسم كوكب المساء على صفحات الماء،
وكانت الجبال التي تحوطني متوجة بغابات قاتمة رَمَى عليها الشفق أشعته الأخيرة.
لم تك هذه المناظر الجميلة لتروقني أو تنفحني ببعض سرور ينعش القلب، بل كنت
أشاهد الأرض كظل متنقل، كما أن شمس الأحياء لا تدفئ الأموات.

كنت أنقل الناظر من أكمة لأكمة، ومن الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب؛
فلم أظفر بهناء يخفف ما بي من ألم الكآبة والوحشة.

ماذا تفيدني هذه الوديان والقصور والأكواخ التي لا أعابأ بها؛ إذ لا أجد فيها ضالتي
المنشودة، وما كانت لتشرح صدري هذه الأنهار والصخور والغابات مع ما أنا فيه من
الانفراد والعزلة، وإن غاب عن عيني عزيز واحد فالدنيا بأجمعها تكون أمامي قفرة
موحشة.

لا أحفل بشمس تتبعها عيني في مسيرها من الشرق إلى الغرب جارية في سماء صافية
أو مكفهرة؛ إذ لا أنتظر شيئاً من الأيام.

وإن استطعت أن أتبعها في مجراها لكنت أشرف على الجو والصحاري، ولكني لا
أرغب في شيء من جميع ما تنبره ولا أطلب أمراً من هذا العالم العظيم.

ولكن ربما كان بعد هذا الكون عالم آخر تضيئه الشمس وتظله سماء أخرى، ولو
تسنى لي أن أترك جثمانني في الأرض، وأصعد بروحي إلى السماء لأنظر بعيني ما أراه
في الأماني والأحلام، فهناك أنتشي من رحيق المنبع الذي آمله، وأجد ما أطلبه من الأمل
والحب، وهذا غاية ما تشتهيهِ الأنفس، وليس له اسم في المقام الدنيوي؛ فلم بعد ذاك أمكث
في الدنيا دار النفي؛ إذ لا علاقة لي بها ولا شأن لي فيها.

مثلي كمثل الورق الذابل حينما يتساقط من الغابات في المروج، فتحمله الريح إلى
الوديان، فاحمليني مثلها أيتها الشمال العاتية!

الخريف L'Automne

سلام أيها الغاب المتوج ببقية من الخضرة، وقد اصفرت منك الأوراق وذبلت فتناثرت على
العشب. سلام أيتها الأيام الأخيرة من دولة الجمال والهناء، وإني ليروقني النظر إلى حداد
الطبيعة على محاسنها التي انقضت وفاتت إذ أجَرَ ما تُجرِّعه من الألم، وبودي لو أنظر
النظرة الأخيرة لشمس باهتة تكاد أشعتها الضئيلة تنير ما تحت قدمي من ظلمة الغاب،

وفي هذه الأيام من الخريف التي تحتضر فيها الطبيعة أجد في نظراتها التي يغشاها الموت ارتياحًا وابتهاجًا، وإن هذا لوداع من حبيب وابتسامة أخيرة من شفتين اقترب منهما دبيب الموت ليطبقهما إطباقًا لا انفتاح بعده.

وحريُّ بي وقد كدت أتأهب لفراق أفق الحياة باكياً أياماً طوَّالاً وأملًا لم أدركه أن أرجع على عقبِي، وأشاهد بعين ملوِّها الحسد نعمًا لم أتمتع بها.

أيتها الطبيعة الجميلة الحلوة بأرضها وشمسها ووديانها، لك عندي دمة أؤديها وأنا على شفا الرمس؛ فالهواء يتضوع نشره والضوء زاهٍ نقي، والشمس تحلو وتجل في عين المائت.

إنني أود أن لا أبقي في هذا الكمِّ قطرة مما امتزج فيه من الرحيق ومرارة العيش، ولكن ربما بقيت في هذه الكأس التي شربت منها الحياة قطرة من العسل، أو ينظر إلى المستقبل بعين عنايته ويرجعني إلى السعادة والهناء، للذين خاب فيهما الرجاء، أو أجد بين هذه الجموع روحًا لا أعرفها علمت جليَّ حالي فأقبلت لتنبئني مُنَاي.

وحينما تسقط الزهرة ترد طيبتها إلى الصبا، وحياتها إلى الشمس، وتودع الدنيا بين يديهما، بينما أموت وروحي وهي في النزع يُسمع لها نغم شجي تذرف له العيون وتخفق منه القلوب.

قرية من جبال الألب Un Village des Alpes

يرى الناظر جبال سافوا الشواهد وقد اكتست بحلها السندسية، وتجلبت برياضها الأريضة الغناء، وسد الصخر مسالكها؛ فلا يشاهد فيها الإنسان غير المهاوي التي ترتعد منها الفرائص، وتقشعر منها الجلود؛ إذ يرى نفسه معلقًا في الفضاء، فوقه السماء وتحت قدميه مهوى سحيق تهلع من هول رؤيته القلوب.

^٦ غلاف الزهرة الذي يُحيط بالأزهار قبل تفتحها، ويقصد به هنا الشاعر عينه، ويود لو يستنزف منها دمعها.

لم يترك الصفا محلًّا للطين إلا الصدوع^٧ فتكاد تنشب فيها الأشجار جذورها والبزور شطأها، وقد عظم بهذه المواطن القسطل، ورسخت أصوله في فروج^٨ الصخور، وتدلّت أفنانه فوق المهاوي السحيقة المظلمة، وانتثر فيها المنثور وتضوّع شذاه.

ترى ما استوى من أعالي الجبال وهي في لونها الأزرق ومسالكها البيضاء، وعلى كثب منها حقول البر على وشك الحصيد، وقد أزرت صفرتة بالعسجد، والغابة الحالكة وهي وسطه كنقطة من العنبر في صحيفة من الذهب، وانعكست ألوان السماء على صفحات ماء البحيرات، وهو في سكونه كماويّة^٩ الحسناء، وقد نبت تحت ظلال القسطل^{١٠} الوارفة الكلاء^{١١} الأخضر الغض، فترى سوقه التي قرضتها ثنايا الغزلان والأروى؛ فغلظت واخشوشن زغبها، وتخلله قطر الندى كمنثور الدرر أو دمع العاشق.

وفي فصل الربيع — وهو أقصر من ابتسام البرق — يثمل نسيمه من أريج وروده وأزهاره، وقد أحاطت بالآفاق جبال من الثلج بيضاء ناصعة، تأخذ بالأبصار كقوارير البلور، وحينما تهدأ العواصف وتظهر قمم الشواهد ترى السماء صافية لابسة ثوبها اللازوردي.

وفي هذه العزلة لا تسمع إلا أصوات الصبيان وخوار العجول وصوت الجلاجل المعلقة برقابها، فترن من قفزاتها وطفراتها، وخرير السيول المتحدرة من أعالي الأطواد مما ينسأه السمع لكونه اعتاده وألفه. وهذه الأصوات بمجموعها أشبه بصوت صاوح لا ينقطع غناؤه الجهوري الرنان.

وانتشرت الأكواخ تحت الأشجار في ظلها الظليل من غير نظام ولا ترتيب، وكأنها نبئت كما تهوى مع هذه الغرائس، وترى أهلها المساكين يتقاسمون بينهم الدعة والسكون، راضين بعيشهم الهنيء، وكل يمرح تحت ظل شجرته وأمامه حقله، فتراه في الصباح على باب داره، وفي المساء داخلها وقد اكتنفهم الصفاء وخيم عليهم الهناء.

^٧ الشقوق.

^٨ بمعنى الصدوع.

^٩ المرأة.

^{١٠} المعروف عند العامة بأبي فروة.

^{١١} الحشائش والأعشاب.

زهرة جافة في كتاب A une Fleur séchée dans un album

عاودتني الذكرى فتذكرت يوماً اختلسناه وذهبنا إلى شاطئ البحر وقد رقت وراقت السماء، ولم يشب صفاءها غيم ولا إعصار، تظلنا شجرة من البرتقال كاسية من زهرها الأبيض الناصع تضوعت رياها فثملنا من عرفها الشذي.

أمامنا بحر أزرق يعب عبابه ولا يُرى له ساحل، وكانت أزهار البرتقال المتناثرة تهاوى على رأسي وتجللني كمطر من الثلج، وقد جمّل الكلاّ الأرض ببساطه الأخضر وتخللته أزهار جميلة متنوعة ينبعث منها عبق لطيف عطّر الأرجاء والأندية بنشره.

أيتها الشجرة النابتة بجانب المعبد الدارس الذي بطش به كر الغداة وممر العشي. لقد توجت هذا العماد بأفنانك النضرة، وازدان هذا الطلل البالي بزهره المونق، ولقد قطفتك أيتها الزهرة البديعة البيضاء، ووضعتك فوق صدري لأنتعش من استنشاق طيبك ونشرك، والآن وقد انقضى ذاك اليوم بسمائه ومعبده وبحره وشاطئه، وحملت السحب عرفك وسارت به إلى حيث تشاء؛ أجد وأنا أقلب صفحات كتابي رسوماً عفت وآثاراً درست من يوم جميل هنيء.

ألفريد دوموسيه^١

نادرة من فحول شعراء الفرنسيين، ولد بباريس سنة ١٨١٠، ومات بها سنة ١٨٥٧، وهو ثاني أُنجال «موسيه باتي»، تعلم في كلية هنري الرابع، فكان من أقرانه فيها «الدوق دورليان»، وبعدهما تردد بين الحقوق والطب والرسم والموسيقى انقطع لعلوم الأدب. وفي الثامنة عشرة من عمره ألحق بالمعهد الأدبي عند «نوديه»، وكان مخصصاً للمذهب المطلق^٢ فوضع بعد دخوله بسنتين كتاب «قصص إسبانيا وإيطاليا» سنة ١٨٣٠؛ فكان له استحسان عظيم و«دون بايز» و«الأندلسية» وقصيدة في القمر وغيرها، فكانت من نفثات أقلامه وهو في شرح شبابه، مما سحر الناس برقته المتناهية في الشعر ورشاقتها البديعة في صوغ القريض؛ حتى نهض بالمذهب المطلق ورفع شأنه. وقد حلّ طروس «مجلة باريس» ببداية رواياته مثل: «أدعية لا تجدي»، و«أوكتاف»، و«فكر رفايل السرية»، ثم ظهرت رواياته التمثيلية: «ليلة في فينيزيا»، و«منظر في كرسي» سنة ١٨٣٢، و«الكأس والشفقتان»، و«فيم تحلم الفتيات؟» رواية لطيفة، و«شجرة الصفاف» مرثية، و«نامونا» قصيدة طلية بلهجة تهكم رقيقة. وعلاوة على اقتداره النادر في بث تأوهات التي تكاد تسمعها من بين سطورهِ، فإنه كان يجاري بعض الشعراء في مذاهبهم، لا سيما «بيرون» الشاعر الإنكليزي المشهور،

^١ Alfred de Musset

^٢ من ضمن أقسام الشعر الفرنسي قسمان عظيمان: المُقيد Classique وهو ما تقيد بما سنه القدماء من شعراء اليونان واللاتين، والمُطلق Romantique وهو ما لا يتقيد بشيء، وهو عكس الأول.

ونخص بالذكر «رولاً» سنة ١٨٣٣؛ فإنها من أسلوب الشاعر السابق، ولها رنة مؤثرة فخم فيها الهيام.

ثم أصابته نوبات وقلقل حولت ذكاه من طور إلى طور أرقى منه سببه له الحب؛ إذ أحب «جورج صاند» الروائية الشهيرة وأحبته، وسافر معها في شتاء سنة ١٨٣٣ إلى إيطاليا متنقلاً بين جنوه وفلورنسا وبولونيا وفيرار، ثم ألقى عصا الترحال في فينيزيا، وهناك شجر بينهما خلاف شديد أفضى إلى الانفصال بسبب انقلابها وخيانتها عهده؛ فرجع إلى باريس وحده في أبريل سنة ١٨٣٤، وقد أنهكتة الشجون وتيمه الهوى المبرح وسحقته هذه التجارب، ولكن كان لها الفضل لكونها صيرته شاعرًا مجيدًا من أوائل الشعراء، كما أشار بذلك في عرض كلامه في قصيدة «ليلة من تشرين الأول» حيث قال:

وقصارى الكلام أن بليتك هي التي أنارت قلبك، فالفادحات والأوصاب بمثابة المعلم، والإنسان كالطفل المتعلم وبقدر الرزايا تكون المعارف؛ وإنها لشرعة قاسية ولكنها حكمة بالغة قديمة كالدنيا ونكدها.

ومن سنة ١٨٣٥ إلى ١٨٤٠ ظهرت معجزات قريضه ونثره وصوت آلامه في الحب والشك والسلوان، وهي «لياليه الأربعة» التي سارت بذكرها الركبان: «ليلة من أيار» و«ليلة من كانون الأول» و«ليلة من آب» و«ليلة من تشرين الأول».

ففي الأولى يبكي «موسيه» من خيانة حبيبته، ويُعرض عن الطيف الذي يدعوه إلى الغناء، وفي الثانية يبحث في العزلة عن شفاء آلامه وأوصابه، وفي الثالثة يعاود قسمه بأن لا يفتح قلبه للحب، وفي الرابعة يزعم أنه طاب ويود أن يقص أخبار آلامه التي يدعي أنه برئ منها، ولكنه عندما سردها كادت تجهز عليه وطأة الانفعال، فأخذ الطيف عليه موثقًا بالغفران والنسيان.

وهذه الليالي مع «رسالته إلى لا مارتين» و«تذكار» هي التي رفعته إلى مصافّ فحول الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان، ولم يلهم شاعر غيره أن يوفق للإتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

يأخذ العجب القارئ لمَ خُصَّ هذا الشاعر وحده بهذه الهبة الجليلة؟! هذا لأنه أحرقه الجوى، وبرى أعظمه الهوى، وأذاب ما على فؤاده من الحجب؛ فاستنار بنور الحب عقله وجنانه، فكان يعبر عن وجدانه وشعوره كما يصف الناظر المرتئات، وغيره لم يجمع بين الوجد المبرح والبلاغة الساحرة؛ فتراه مهما كان مقتدرًا على القريض، وحاول أن يصف الهوى، فإنه لا يصفه إلا وصفًا خياليًا سمجًا تمجُّه الأذواق وتزدرية الأذهان.

وبعد «الليالي» ظهرت قصيدته «الأمل في الله» ورواية قصصية كبيرة كتبها نثرًا وسماها «اعتراف طفل من أبناء الجيل» سنة ١٨٣٦، سرد فيها الشاعر — وقد قارب الشفاء — ما انتابه من مضض الآلام، ثم «نعمة طيبة» وهي بديعة النظم شائقة المعاني. وكتب عددًا عظيمًا من الروايات التمثيلية كان لها نصيب وافر من الرقة والبلاغة تماثل في أسلوبها روح شكسبير، منها: «فانتازيو»، و«أهواء ماريان» سنة ١٨٣٣، و«لورينزاشو»، و«لا يمزح بالحب» سنة ١٨٣٤، و«باربيرين» سنة ١٨٣٥ وغيرها. وفي أواخر أيامه أنهكه التعب والمرض من الإفراط في الملذات^٢ فضعف ذكاؤه، وفي سنة ١٨٥٢ انتُخب في المجمع العلمي الفرنسي بعدما وهت قواه الجسدية والعقلية، وما فتئ مرعيًا في فرنسا بأنه أكبر الشعراء في الحب وأصدقهم وأشدهم تأثيرًا.

ليلة من تشرين الأول La Nuit d'Octobre

الشاعر: أصبحت والحمد لله لا أتذكر مما تكبدته من الآلام فيما سلف من الأيام. إلا كطيف خيال أو ضباب خفيف أهاجه الفجر، ثم لاحت بعده تباشير الصباح ونفحات النسيم العليل بين الندى البليل.

الطيف: ما الذي دهاك يا شاعري؟! وأي عناء خَفِيَ أَنَّ منه قلبك حتى صرمت حبالِي وصرْتُ أتلَهف لسبر هذا الداء الكمين الذي طالما أنضب مني الدمع؟!^٣

الشاعر: قد كان أُلماً معروفاً بين الخاص والعام، ولكننا إذا شعرنا ببعض السأم حل القلوب تصورنا لقصر العقول أننا أول من أحس بالداء.

^٢ كان حبه مبرحاً ممتيماً، فكان يعتكف في داره ممضياً وقته في البكاء والنحيب، حتَّى جُنَّ في أواخر أيامه من شدة الحب، وكان يُكثر من شرب الأيسنت وقت انفعاله واضطرابه؛ لِيُخَفِّفَ ما به من وطأة الحزن والبكاء.

^٣ من خرافات اليونان أَنَّ المشتري إله الآلهة كان له من «منيموزين» إحدى زوجاته تسع بنات يعرفن باسم الموز Les Muses واختصت كل واحدة منهن بفن من الفنون وصارت إلهة له، وفي هذه القطعة تخيل الشاعر أَنَّهُ يُخاطب طيف «موز» الشعر، فلذلك فضَّلنا التعبير عنه بالطيف بدل «موز»، أو إلهة الشعر.

الطيف: إنك لأرفع مما اتصفت به، فالنفس العلية لا تتألم من الحادث الجلل، وما الذي حرّك منك الآن أيها الحبيب ما سكن من أليم الذكرى؟! فافتح لي صدرك وخبرني عن موضع دائك فقد لقيت من لا يضيع عنده السر، وإن السكوت لأخو الموت، وفي الشكوى إلى أخي المروءة سلوان وعزاء، كما قد ينجي الكلام من وخز الضمير والندم.

الشاعر: وحيث لا مناص لي الآن من بث الشكوى، وشرح ما صدع الفؤاد من الهم والبلوى، وإني لأحار في تسمية هذه الآلام أحب أم جنون أم كبرياء؟! ولا أدري إن كان أصاب أحداً قبلي ما أصابني منه، وحيث خلت بنار الدار فاجلس لأقص عليك الحديث وهاك الكنارة^٥ فأيقظ مني الفكر بنغماتك العذبة.

الطيف: خبرني يا شاعري قبل سرد أوصابك وأشجانك إن كنت برئت منها وعوفيت، فتكلم ودع الحب والحدق جانباً، ولو فكرت أني وُسِّمْتُ بأحب الأسماء وألطفها ألا وهو المعزي المسلي نافي الأحزان والأتراح؛ فلا يجربك الظن أني كنت قرينك فيما ذهب عنك من الجوى المبرح.

الشاعر: قد انقشع الداء وتم الشفاء، ولم يبق منه في الذاكرة إلا خيال، وحينما يدور بخليدي ذكر المواطن التي خاطرت فيها بروحي أتخيل أني أرى مكاني إنساناً غيри، وأنني لست بطل القصة؛ فهيا نتجاذب أطراف الحديث باطمئنان ونتساجل بث الشكوى، فما أحلى البكاء والابتسام عند تذكّار الأوصاب التي يتسنى لنا نسيانها.

الطيف: أحنو وأعطف على قلبك المنفطر كأمر حنون ساهرة بجانب ولدها المحبوب، وإني لأرتعد كالريشة في مهب الريح فوق هذا القلب الذي طالما كاتمني ما انتابه من مضض الوجد ولوعة البين، وهأنذا يقظ وكنارتي مهياة لرفيق النغم وشجية لتتبع لهجة صوتك الحزين علي أنفي عن قلبك ما علق به من الهموم والآلام.

الشاعر: لا يعد من عمري إلا ما قضيته في العمل؛ فحبذا الوحدة وحمداً لله الذي حُبب إليَّ الانقطاع عن العالم وانعكافي في غرفة مطالعتي هذه كمسكين بائس، ولكم أقفرت بي الدار، وافترش الغبار المقاعد، ولا أنيس لي إلا المصباح؛ فنعم هذا القصر بل كوني وعالمي الصغير ... وأنت أيها الخيال الخالد، هلم نغني فإني أحب أن أطلعك على أعماق قلبي، وسأقص عليك ما تحدّثه المرأة من المصائب، وما رمتني بها إحداهن وربما لا تجهلها.

^٥ آلة موسيقية بأوتار كانت تستعملها العرب، وأطلقناها هنا على «الليز»، وهي آلة موسيقية وترية كانت مُستعملة عند قدماء الإفرنج.

قد سلبتني النهي وصرت لها كالرقيق فاقد الإدارة والقوة. بيد أنني كنت أحسبني راتعاً في بحبوحة الهناء والسعادة، وكنا نتمشى على كثبان الرمل الفضّي على مقربة من الغدير، وأمامنا على مرمى النظر شجر الحور الأبيض، يعبث النسيم بقامته الطويلة الهيفاء، التي كانت بمثابة دليل على الطريق الذي نؤمه، وكنت أرى في ضوء القمر هذا الجسم الجميل يتثنى بين ذراعيّ كماء الجداول ونحن سكوت والهوى يتكلم.

وما كنت لأفكر لأي شأ تطوّح بي السعادة والهناء، ولا ريب أن نار الغضب التي اتقدت في قلوب الآلهة كانت في حاجة لقربان تأكله؛ لأنها حنقت عليّ واقتصت مني لكوني أردت من باب التجربة أن أكون سعيداً.

الطيف: إن خيال التذكار الهنيء جاء طارقاً ذاكرتك ليخيم في رسومه القديمة، فلم لا ترغب أن يسير سيرته الأولى، وذلك خير من جحود أيامك الحلوة الرغدة، وإن كنت قد عثر بك الجد أيها الفتى فاعمل على شاكلته وابتسم لأيام حبك الأولى.

الشاعر: كلا فخليق بي أن أبتسم لأيامي المنكودة كما أنبأتك من قبل أيها الخيال، وإنني أود أن أقص عليك بلا تأوه ما انتابني من الأمانى والآلام والبُحُران^٦ والزمان والمكان. ففي ليلة على ما أذكر من تشرين الأول كثيبة قرّة^٧ هي وليلتنا هذه صنوان أو توأمان، وكانت رياحها تعصف بنغمة واحدة؛ فتحرك من رأسي التي أجهدا النصب ما سكن من مر الشجون والأتراح، وكنت مشرفاً من النافذة منتظراً حبيبتي منصتاً كأن على رأسي الطير في ظلام حالك؛ فجاش القلق بخاطري وساورتني الظنون والأوهام، حتى مثلت أمامي الخيانة، وكان الحي الذي أسكنه معتماً قفراً لا يرى فيه إلا نفر قليل من السابلة^٨ بأيديهم مصابيح.

وكان كلما هب النسيم من الباب يُسمع له على بعد صوت أشبه بأنين إنسان، وما أدري كيف أعبر عما دار بخلدي من التشاؤم حتى غبت من القلق والحيرة عن الصواب. وأذكر أنه بقي لي مسكة من القوة فلما دقت الساعة اقشعررت وارتعدت فرائصي ولم تقبل بعد؛ فبقيت وحدي مطرق الرأس أسرح الطرف في الطريق، وإنني لم أخبرك بعد بأية جرأة أضرمت هذه المرأة المتلونة في قلبي نار الحب؛ إذ كنت لا أحب غيرها في العالم ولا

^٦ اختلاط العقل عند نوبات المرض الشديد.

^٧ شديدة البرد.

^٨ المارون في السبيل؛ أي الطريق.

أستطيع أن أحيأ بدونها يوماً واحداً، فتمثل لي النحس بصورة أبشع من الموت، ولأفصم ما بيني وبينها من عرى الألفة والمحبة لم أدع في جعبة اللعن لفظاً أو معنى للغدر والخيانة إلا ووسمتها به، وانتظمت أمام ناظري جميع المصائب التي رمتني بها فلم يفتني العد والحصر؛ فوا أسفاً على ذكرى جمالها المشئوم! فكم سببت لي من بئس وهم لم يلفهما سلوان ولا عزاء.

فما عثم أن لاح الفجر وأنا منتظر بغير طائل ولا جدوى، وكنت بجانب الشرفة وقد داعب النعاس عيني فأغفيت، ثم صحت فرأيت تباشير السحر، فرددت طرفي فجأة في أطراف الطريق الضيق؛ فسمعت وقع أقدام خفيفة فقلت: اللهم تداركني بقوتك، فأني أراها وهي عينيها، فدخلت فقلت لها: من أين أقبلت وما فعلت الليلة؟

أجيبيني. ماذا تبتغين مني؟! وما الذي طوح بك إلي في هذه الساعة؟ وأين استلقى هذا الجسم اللطيف إلى الصباح مع أنني لم أبرح مكاني وحيداً ساهراً باكياً؟ أين اضطجعت ولمن جدت بابتسامك؟ يا لك من غادرة خائنة جسورة! أؤمن الممكن أن تجيئني لتقديم ثغرك لقبلي؟! فهيها هيهات لما تبغين، وبأي شوق قبيح تجترئين أن تعانقيني بأذرع مل منها وملت؟! فاذهب واغرب عني يا خيال الخيلة، وارجع إلى رمسك إن كنت أنشرت منه، ودعني أنسى زمن صباي مدى حياتي، وإذا تذكرتك تحققت بأن لست إلا في عالم الأحلام.

الطيف: ناشدتك الله أن تلطف ما بك؛ فأني أقشعر من حديثك، وإن جرحك أيها الحبيب مهياً للانفجار ثانية إذ اندمل على الصديد والأذى، وأهاً لدنيا لا تنسى مصائبها عاجلاً إلا بعد كر السنين، فانسَ جهد استطاعتك مضض الأيام واطرد اسم هذه المرأة التي لا أريد تسميتها من ذاكرتك.

الشاعر: خزيًا لك يا من هي أول من علمتني البغض وأفقدتني الرشد من الغضب والانزعاج. تبًا لك أيتها المرأة التي سحرتني بعينها فوقعت في حباله هذا الحب المشئوم الذي أقبر ربيعي وأيام هنائي في عالم الخيال، وإن صوتك وابتسامك ونظرك المفسد المضل لهي التي علمتني اللعن والسباب، ورماني في مهاوي اليأس صباك الفتاك وجمالك الفتان.

عار عليك فأني لم أكُ بعد إلا ساذجاً كالطفل، وكان قلبي كزهرة في الفجر لم تتفتح من أكمامها إلا لحبك، ولا ريب أن هذا القلب الذي لم يجد له غوثاً ذهب فرطاً، ولو تركته بُراء لكان أسعد حظاً، فضحا لك يا علة ضري ووسواسي يا من فجرت ينابيع الدمع من

آماقي وجفوني، ولبث سائلاً مسترسلاً لا مجفف له نابحاً من جرح لم يبرأ بعد، ولكني سأطهر في هذا الينبوع المر عليلي أترك فيه درن تذكارك الممقوت.

الطيف: حسبك ما قاسيته من هذه الخائنة، وحيث إن أمانيك لم تلبث إلا عشية أو ضحاها؛ فلا تفضح هذا اليوم حينما تذكرها، وإن أردت أن تحب فاحترم الحب.

خُلِقَ الإنسان ضعيفاً فتراه لا يقوى على الغفران لمن أساءه إلا بجهد جهيد، فاغنم الراحة من عذاب البغض والحقد، وإن أعوزتك المسامحة فعليك بالنسيان، وكما أن الموتى نائمون هامدون في بطون اللحد يلزمن أن نخمد عواطفنا في رموس القلوب. وذخائر الأقدمة المغبرة يجب علينا أن لا نمد يدًا إلى بقاياها المقدسة، ولم أراك تئن من سرد مصابك وعذابك، وتبتغي أن لا تراه إلا في عالم الرؤيا أو كحب كاذب كبرق خُلب. أتخال أن القضاء يسير بغير حكمة ولا سبب، وتظن أن الضربة التي أصابتك ضربة طيش، كلا فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وربما كان ما أصابك واقعاً لك من أعظم منه، وقصارى الكلام أن بليتك هي التي أنارت قلبك؛ فالفادحات والأوصاب بمثابة المعلم، والإنسان كالطفل المتعلم، وبقدر الرزايا تكون المعارف، وإنها لشرعة قاسية ولكنها حكمة بالغة قديمة كالدينا ونكدها. نحن في حاجة للبكاء لنحيا ونشعر كالصيد يعوزه الندى ليدرك، والسرور رمزه نبات مقطوع مغطى بأزهار تميل أعناقها من الندى. ألم تُشَفَ من جنونك ولم تزل في عنفوان شبابك سعيداً محبوباً؟! وهذه المسرات الصغيرة هي التي تُرغب الناس في الحياة، وإذا كنت لم تذق طعم البكاء ماذا تكون حالك؟ أكنت تهناً بأصال تمرح فيها بين شجيرات الخلد مع صديق قديم تشربان وتتسامران؟! أكان يسوغ لك كأسك إن كنت لم تذق طعم البشر والفرح؟! ألا تحب الأزهار والمروج والرياض وشعر بترارك^٩ وتغريد الطيور الصادرة وميكيك إنج^{١٠} والفنون الجميلة وشكسبير^{١١} ومحاسن الطبيعة؟! ولولا بعض تأوهات قديمة لما كنت تفهم شجو السموات وطربها الذي لا يوصف، وسكون الليل، وخزير الأمواج، ولو لم تعتورك الحمى والسهاد ما كنت في الراحة الأبدية ولما كانت لك خلية جميلة تقاسمها صنوف المسرات والملذات.^{١٢}

^٩ من مشاهير الشعراء الإيطاليين.

^{١٠} مصور مشهور من إيطاليا.

^{١١} من فحول شعراء الإنكليز.

^{١٢} في هذا الموضع كرر المؤلف الجزء الذي ذكر فيه سيره مع خليلته في ضوء القمر قرب الغدير؛ فلذلك ضربنا عن ذكره صفحاً؛ لتكراره بلفظه ومعناه.

الشاعر: لقد قلت حقًا فالحقد ممقوت، وما كان ذاك إلا قشعريرة ملؤها الانزعاج تحدثها هذه الأفعى حينما تزحف في القلوب، فأصخ لي أيها الخيال وكن شهيدًا لهذا اليمين: قسمًا بعيني حبيبتي المزريت بالزمرد، والجو والسماء، والشمس المشرقة في الأفق كدرة متدحرجة، والطبيعة وعظمتها، والخالق وقدرته، والنور ولألائه، والنجم العزيز عند المسافر، والمروج ونضرتها، والغابات ورهبتها، والحياة وسلطتها، والعالم وحركته، إنني لطاردها من ذاكرتي، وسأعيش مسلوب الحجي من الوجد والشغف. والساعة السعيدة هي التي أنساها فيها وأغفر لها ما قدمت وأخرت، وليعف بعضنا عن بعض، ولنقصم عرى الحب الذي جمعنا أمام الخالق بآخر العبرات التي ستكون وداعًا إلى الممات.

والآن أيها الخيال البهي الطلعة أسمعني بعض الأغاني الشجية المطربة، أغاني الأيام الهنيئة السعيدة، إذ الرياض تنفح بأريج شذاها، وقد اقترب الصباح، فهيأ أيها الخل الوفي نقتطف أحاسن أزاهير هذه الجنات. تعال نمتع الناظر بمحاسن الطبيعة الخالدة التي تطرح الآن نقاب النوم، ولنعتبر أننا سنولد الساعة مع أشعة الغزالة.

الفرس الوحشية La Cavale Sauvage

كاد يودي بها الظمأ في مفازة^{١٣} تستعر منها الرمضاء،^{١٤} فهامت على وجهها ثلاثة أيام تبحث عن الماء؛ فلم تظفر به في أرجاء هذه البطحاء، ثم أمّلت أن تجود عليها السماء بوابل يدرأ عنها غائلة الغلة^{١٥} في صحراء افترش الغبار نخلها وركد هواؤها، فترى جريد النخل متدليًا لا حراك به، وقد حمي وطيس الشمس، وأضحى الفضاء كتنور أكلبه السجر.^{١٦}

^{١٣} صحراء.

^{١٤} الرمل حينما يسخن من حرارة الشمس.

^{١٥} العطش الشديد.

^{١٦} أي صار كلبًا، من السجر؛ أي الإيقاد.

سارت متخبطة في هذه الجرداء^{١٧} ترتاد بئراً تبلُّ منها صداها، وأنى تجدها وقد جففته ذكاء،^{١٨} وترى الأسد مضطجعة فوق الصفا^{١٩} تحرق الأرم^{٢٠} من الغيظ.

شعرت هذه المهرة البائسة أنها رزحت تحت كلل القضاء، وقد غلى الدم في عروقها، وانفجر من منخرها؛ فخانتها قواها ووقعت مغشياً عليها، وشرب الرمل دمها بنهم فارتوى، وعرفت أنه ما ضنَّ عليها بالماء إلا وهو أظماً منها، ثم تمددت وانطفأ نور عينيها النجلاوين؛ فأسلمت الروح وأدرجت الصحراء فرسها — بل ابنتها — في أكفان من رمالها المضطربة.

أفات فرسنا المنكودة أن ترقب القوافل وهي مارة تحت ظلال الأشجار الوارفة، فما عليها لتقلت من شقائها إلا أن تتبعها مطأطئة الرأس لتجد في بغداد الإسطبلات الرطبة المنعشة والمزاود المذهبة والبرسيم المزهر الغض وآباراً باردة لم ترها السماء. وإن كان البارئ قد خلقنا من طين واحد؛ فلا بد أن يكون عجننا في أنية مختلفة الصلصال وجففنا في شمس تكاد تتميز من الغيظ.

ومهما يكن المخلوق نسرًا أو خطأ، فلا يستطيع أن يحني عاتقه أو يخفض جناحيه من الذل؛ إذ ليس له من السعادة والهناء أعظم من كلمة واحدة، وهي الحرية.

A Une Fleur زهرة

ما تبتغين أيتها الزهرة العزيزة التي هي أحب وألطف تذكاري؟ ومن طوح بك إليّ وقد بقي فيك مسحة من النضارة والحياة؟!

قطعت طريقاً طويلاً طي قرطاس مختوم فماذا سمعت؟ وبم همست إليك اليد التي قطفتك من الخمائل؟

^{١٧} الأرض التي لا نبات فيها.

^{١٨} الشمس.

^{١٩} الصخر.

^{٢٠} تصرف بأسنانها حنقاً.

هل أنت إلا ضغت^{٢١} يدب فيه الموت؟ أو متهيئ لأن يزهر مرة أخرى، أم أدرجت فيه فكرة؟ لهفي على زهرتك أيها الضغت التي تماثل ببياضها الوداعة المحزنة. وورقك بلونه يشابه الأمل الخائف المتهيب.

تكلم إن كنت تحمل إليّ رسالة فقد لقيت من لا يضيع عنده السر. ليت شعري أخضرتك سر من الأسرار ورياك^{٢٢} لغة من اللغات؟ فإن كان الأمر كما تحدثني به النفس؛ فنانجني أيها الرسول الخفي، وإن لم يك عندك شيء، فابق صامتاً ونم على قلبي خفياً رطباً.

إنني لأعرف حق المعرفة هذه اليد التي ملئت فضلاً ولعلت بالأهواء، وعقدت كلك الباهت بهذا الخيط الناعم، وإن هذه اليد لم يجد «فيدياس ولا براكسيتيل»^{٢٣} لها أختاً؛ ليتخذها نموذجاً لما يصنعان من بديع التماثيل إلا يد الزهرة ربة الجمال. إنها لزهراء حلوة جميلة صادقة ويقال: إنها ستكون كنزاً لمن أسعده الحظ فكانت له عروساً، ولكنها حكيمة قاسية أخاف غضبها وشرها، فسه^{٢٤} أيتها الزهرة ودعيني أتيه في بيداء الأمانى.

لوسيا Lucie

كنتُ ذات ليلة جالساً بجانبها، فانحنت على البيانو وتسربت إليه يدها البيضاء، وهي غارقة في بحار أمانيتها؛ فخيل إليّ أنني أسمع خرير الماء، أو أن النسيم مر على مقصبة^{٢٥} مشفقاً أن يوقظ ما حط عليها من الطير.

وكانت ملذات الليالي الشجية تنبعث حولنا من أكامم الأزهار، وعلى كذب منا حديقة غناء، بها القسطل والبلوط العتيق، تميل منها الجذوع تحت غصونها الميade، ونحن منصتان لسكون الليل، وكانت النافذة مفتوحة يمر منها أريج الخريف المنعش فعطر

^{٢١} قضيب صغير من النبات به بعض أوراق أو أزهار.

^{٢٢} الرائحة الجميلة.

^{٢٣} اثنان من مصوري التماثيل من مشاهير قدماء اليونان.

^{٢٤} اسكتي.

^{٢٥} مكان مزروع فيه قصب؛ أي الغاب.

غرفتنا، وكانت الرياح ساكنة والسهل قفرًا، ونحن وحدنا تساورنا الشجون، ولم يك لنا من العمر إلا خمسة عشر ربيعًا.

نظرتُ إلى لوسيا فإذا هي بيضاء ذهبية الشعر، بعينين لم أرَ أجمل منهما، تزيان بصفاء السماء، فسَرت في دمي نشوة جمالها؛ إذ كنت لا أهيّم بغيرها وحبّي لها كحب الأخ لأخته، وكان الحياء يخامر كل بادرة منها.

وبينا نحن سكوت إذ مست يدي يدها؛ فرأيت جبينها الواضح وقد ارتسم عليه الحزن، وكنت أشعر أن لنضارة الوجه وشباب الفؤاد وهما توأمان ورضيعا لبان تأثيرًا عظيمًا في شفاء تباريحنا وآلامنا.

أشرق القمر في سماء نقية رائقة، وما لبث أن اشتملته مزنة^{٢٦} بيضاء كنسيج من اللجين.^{٢٧} وكانت ترى في صورتها مرتسمة تتلألأ في عيني، ويخيل إليّ أن ابتسامها أشبه بابتسام الملائكة، ثم غنت بصوتها الرخيم العذب:

... أيتها الموسيقى، إنك لبنت الألم! ولغة ابتدعها العقل لترجم عن الحب،
أنزلها الله من سمائه إلى إيطاليا، ومنها جاءتنا بآياتها البينات، وهي ألطف
لسان للقلب يحمل فكره التي هي أشبه بالعداري الخفرة^{٢٨} المتهيبة التي
تخاف من ظلها وتمشي مختمة^{٢٩} دون أن تخشى العيون.

ومن يعلم مبلغ ما يعقله أو يقوله غلام مثلي، حينما يسمع تأوهاتك التي تولدت من
الهواء الذي يستنشقه؟ تنهدات لها رنة حزن أشبه بقلبه لطيفة كصوته.
إن فاجأتها وجدتها ساجمة العبرات، وهذا غاية ما تعرفه، والباقي سر يجله الناس
كأسرار اللجج وغياهب الغابات!

كنا وحدنا تخامرنا الشجون وأنا ناظر إلى لوسيا، وقد خيل إلينا أن صدى أنشودتها
يكاد يذيب القلوب، ثم أسندت عليّ رأسها المثقل بالهموم، فسألتها هل يشعر قلبك أنك في

^{٢٦} السحابة البيضاء.

^{٢٧} الفضة.

^{٢٨} الشديدة الحياء.

^{٢٩} مدارية رأسها بخمارها.

موقف «ديسديمونا»^{٣٠} فلذلك تغالبك الهموم من كل صوب؟! إنك تبكين أيتها المسكينة، وقد تركت شفتي تلثم ثغرك اللطيف إذ أنت هائمة في مفاوز الشجون؛ فكأنني ما قبلت إلا الحزن، وعانقتك فوجدتك مثلوجة الجسم شاحبة اللون، واليوم ولم يمض إلا شهران أراك رهينة الرسم!

أيتها الزهرة النضرة الطاهرة! أرى موتك قد تمثل ابتساماً يماثل حياتك عذوبة ورقة، وأصبحت وقد حملك الله بمهدك إلى رحمته.

يا ما أحيل سراً منك يسكنه الطهر والعفاف من شجي الأناشيد وأماني الحب وابتسامات تخجل وميض البروق وفعال في السذاجة^{٣١} كفعال الأطفال!

وأنت أيها الحب! يا مَنْ لم تدرك له العقول كنهها، ولا يقدر أن يعتصم منه أحد، ويا مَنْ أوقف «فوست»^{٣٢} متردداً على باب «مرجيريت»، فكيف أصبحت يا صفاء الأيام الأول الهنيئة؟ خيم السكون على روحك أيتها الكاعب! فوداعاً لذكراك وسلاماً على يدك البيضاء، التي كانت تحدث من «البيانو» في ليالي الصيف تلك النغمات التي لا يزال رنينها مرفرفاً في أركان البيت.

أوصيكم أيها الأحباب الأعزاء أن تغرسوا على قبري شجرة صفصاف؛ فإني أهوى لونها الباهت كالحزين الأسف وأغصانها المرسلة كدمع الباكي، فنعم ظلها الظليل على أرض سأنام فيها نومي الطويل.

^{٣٠} امرأة أو تلو «من روايات شكسبير»، ويضرب بها المثل الفرنسي للمرأة العفيفة الطاهرة الذيل البريئة المتهمة من زوجها بالشبهات ظلماً.

^{٣١} البساطة.

^{٣٢} رواية مشهورة للفيلسوف الألماني «جوت»، ومرجيريت حبيبة فوست.

أندريه شينييه^١

واسطة عقد شعراء زمانه، ولد سنة ١٧٦٢ بالآستانة من أم يونانية وأب فرنسي، كان سفيراً لدولته بالقسطنطينية، فعلمته أمه في صغره اللغة اليونانية، حتى إنه حصل على نصيب وافر منها وطالع في الرابعة عشرة من عمره دواوين شعراء اليونان، وفي السادسة عشرة ابتدأ يترجم الشعر اليوناني إلى الشعر الفرنسي؛ فتشبعت قريحته من روح النظم القديم، فكان شعره يماثل المقيد في الشكل، ولكنه جديد الفكر عصري الخيال.

أتى به إلى فرنسا وهو في حوله الثاني، وأتم دراسته بمدرسة «نافار»، وعالج قرض الشعر مبكراً في شرح شبابه وهو في السادسة عشرة من عمره، وبعدما قضى بضعة شهور في ستراسبورج وهو ضابط برتبة ملازم ثان أقام طويلاً بباريس، ثم اتصل بالسفارة الفرنسية في إنكلترا، ولبث فيها ثلاث سنين ثم أب إلى فرنسا سنة ١٧٩٠.

كان محباً للفكر الجديدة ومن نصرائها، شديد العارضة ببلاغة ملؤها الحماسة نحو الهيئة الثورية المسماة «لا تيرور La Terreur»، وقد قبضت هذه الفئة الطاغية على زمام الملك في ٣١ مايو سنة ١٧٩٣، وكان رائدها الظلم العسف؛ فأهلكت الحرث والنسل، وضربت أعناق آلاف مؤلفة من نصراء الحرية، الذين انبروا للدفاع عنها في ظرف الثلاثة عشر شهراً، التي مكثتها هذه الطغمة العاتية، وانقشعت بقتل رئيسها «روبيسبيير Robespierre» في ٨ يوليو سنة ١٧٩٤.

^١ André Chénier

طفق يحارب هؤلاء الجبابرة بنفثات أقلامه في الجرائد تارة وفي الخطابة طورًا، مدافعًا عن الحرية، معددًا مساوئهم وعسفهم إلى أن قبضوا عليه في مارس سنة ١٧٩٤، وسجن في «سان لازار»، ثم ضربت عنقه هو و«روشييه Roucher» الشاعر في آن واحد، وذهبا كمن سبقهما من الألوף المؤلفة شهيدين للحرية والوطنية في ٢٥ يونيو سنة ١٧٩٤. وكان موته خسرانًا لفرنسا؛ إذ فقدت به البلاغة والشعر نابغة في عنفوان شبابه، ولم يكد يبلغ الثانية والثلاثين، ولو عاش لأتى بمعجزات البلاغة ومدهشات القريض، وجرَّ ذيل النسيان على أغلب شعراء قومه من السلف والخلف.

ولم يُطبع ديوانه إلا في سنة ١٨١٩، وهو يشمل: الغزل، والرتاء، والهجاء، والأناشيد الوطنية، والرسائل، وعدة مقاطيع شعرية من الأهمية بمكان، لا سيما «هرمس Hermès»، وهي ملحمة فلسفية شائقة.

وكان شينيه أعظم شعراء القرن الثامن عشر، وفلسفته تشابه فلسفة «بوفون Buffon»^٢ أو «كابانيس Cabanis»^٣ وكان جاحدًا لا يتدين بدين.

وقد مهر في الشعر وأتى فيه بآيات بينات، ولم يتفرد بمذهب الشعر المقيد، الذي كان يقلده تقليدًا تزيينه الرقة والانسجام، وكان له ذوق سليم في الميتولوجيا^٤ والتعبير عن الكلمات بالجمال؛ لتسع ما يبيته فيها من نفثات البلاغة، ولم يستعمل في كتابته غير الألفاظ الفخمة الفصيحة.

وقد أعاد هذا الشاعر المجيد للقريض الفرنسي شبابه بعدما كاد يودي به الضعف وملأه حمية وحماسة، فجدد الشعر الخلوي بعواطف صادقة تمثل الطبيعة تمثيلًا حقيقيًا، وأحيا الرثاء بما تمليه إليه نفس أضنتها الآلام، وأصلح الهجاء بنفحات روحه المتوقدة، وهو أول من أنشأ الشعر المطلق وآخر شعراء المذهب المقيد وأعظمهم.

^٢ من أعظم كُتّاب فرنسا، وطار صيته في علم التاريخ الطبيعي ١٧٠٧-١٧٨٨.

^٣ من مشاهير الأطباء والفلاسفة الفرنسيين سنة ١٧٥٧-١٨٠٨.

^٤ لما كان المؤلف مسجونًا سمع بجواره فتاة تندب حالها، وتشكو زمانها، وترثي شبابها الغض؛ خائفة من الموت، وهي «مدام دوكوني» سنة ١٧٦٩-١٨٢٠، وكانت آية في الجمال، والفضل في شهرتها راجع إلى هذا الشاعر؛ لكونه نظم لأجلها هذه القصيدة.

الفتاة الأسيرة La Jeune Captive

«يحترم المنجل السنبله قبل نضجها غاضاً أمامها الطرف، ويرشف جديد الغصون من الكروم ما يهديه إليه الفجر في أيام الصيف من الندى البليل غير خائف من ألم العصر، وإني لجميلة فتية مثلها أكره الموت ولو أني الآن هدف لقلق البال والسأم.

ليطر إلى الموت الزؤام من عصي دمه من الصبر والجلد وعدم المبالاة، ولكني أنوح والأمل ملء فؤادي، وحينما تهب الشمال أخفض رأسي حرصاً، ثم أرفعها إذا مرت، وإن كان لبعض الأيام مرارة فلغيرها حلوة تنسي نكدها وتُبرئ أوصابها. وهل رأيت شهداً شهياً لا تعافه النفس إن واطبت عليه وبحراً خلواً من الأنواء والأعاصير؟

تبيض وتفرخ بقلبي الأماني والآمال في سجن تكاد جدرانته تنيخ عليّ لئلا أفلت منها، ولكن ساء زعمها؛ فإني راكبة جناحي الأمل، كالعندليب تسرب من قفص بائع الطيور القاسي، طائراً منتعشاً متهللاً في فسيح الخلاء ومزهر الرياض، وقد اكتنفه الهناء من كل صوب، يغرد ثملاً بنشوة الحرية والسعادة.

أيموت مثلي؟ مَنْ تنام والدعة غطاؤها، وتسهر والسكون أنيسها، ولم يخالجها توبيخ الضمير في اليقظة ولا في النوم.

وكان حسن لقائي نهائياً بادياً في العيون، وكأنه يبسم لي ظاهراً على الجباه التي اكفهرت من البؤس والعناء، وقد أنعش مرآي الجميع في هذه الأماكن، وهللهم بشراً وسروراً.

إنني في مبدأ رحلتي الشائقة مسافرة تحت ظلال الأشجار الجميلة، التي تحف طريقي من الجانبين، ولم أكد أمر على أولاهي وقد مُدَّت أمامي مائدة الحياة، وما أوشكت أن افتتحها ممسكة كأساً ما فتئت مفعمة إذ لم تكد تنضم عليها شفاتي، ولست إلا في الربيع، وأشتهي أن أدرك الحصاد أو كالشمس تنتقل من فصل لآخر لتتم سنتها.

إني لزهرة متلائة فوق غصني، مزرية بما حولي من الأزهار في بستان دولة الجمال، ولم تتمتع بأشعة الغزالة إلا عند شروقها، وأبغى أن أحظى بها لغاية غروبها.

أيها الموت! إنك لتستطيع أن تُنظرني^٥ فاغرب عني، واذهب لتريح القلوب التي يفترسها الخزي والرعب ويميتها اليأس، فإن «باليس»^٦ يعد لي النضر من ملاجئه الخضر،

^٥ تؤخرني.

^٦ إله الماشية والرعاة في «الميتولوجيا» الرومانية.

و«أمور»^٧ المنعش من قبله الحلوة، و«موز»^٨ الشجي من حفلاتها الموسيقية، ولست أبغي الموت قبل التمتع بهذه الاحتفالات الهنيئة.

كنت مشاطراً لها في الحزن والأسى، فاستيقظت مني مخيلة الشعر، وأصغيت لهذا الصوت الشاكي وهذا الاعتراف الذي تبوح به هذه الكاعب الأسيرة، ثم هزرت أثقال الحياة المضنية، ونظمت ما تناثر من فمها اللطيف المحبوب من غرر الدرر في سلك عقود القريض؛ فأصبحت أناشيد تشجي العشاق وسلواناً ولهواً لهم يقتلون بها أوقات فراغهم. ولقد تساءل مَنْ معها مِنَ المسجونين من تكون هذه الحسناء التي زانت الرشاقة جبينها وحديثها؟ وإنا لمشفقون أن تنقضي أيامنا، وحبذا لو طال علينا الأبد فما نحن بجانبها إلا في السعادة والهناء لا في السجن والعناء.

^٧ إله الحب.

^٨ إلهة الموسيقى.

الكونت ألفريد دوفيني^١

مَمَّنْ يشار إليهم بأطراف البنان من فحول الشعراء الفرنسيين، ولد بلوش سنة ١٧٩٧، وتوفي بباريس سنة ١٨٦٣.

كان سنة ١٨١٤ ملازمًا ثانيًا في فرسان الشرطة «الجندرمة»، ثم عُيِّنَ سنة ١٨١٥ في حرس المشاة الملوكي، ورُقِّيَ سنة ١٨٢٣ إلى رتبة يوزباشي، وأُرْسِلَ إلى الحدود مدة حرب إسبانيا، ثم استعفى من الخدمة سنة ١٨٢٨، وقد تزوج قبل هذا العهد بسنتين بفتاة إنكليزية تسمى ليديا بونبوري.

عاد إلى باريس، وكان من المطبوعين على الشعر المطلق، وابتدأ في نظم الشعر من سنة ١٨١٥؛ أي في الثامنة عشرة، وظهر أول مؤلفاته سنة ١٨٢٢ بعنوان «منظومات»، وفي سنة ١٨٢٦ طبعه طبعة جديدة وسمَّاه «المنظومات القديمة والحديثة»، وأضاف إليه بعض قطع من ضمنها: «موسى»، و«أيلوا»، و«الطوفان»، و«البوق»، وفي سنة ١٨٣٧ أتبعها بأخرى وهي: «الجليد»، و«مدام دوسوبيز»، و«الطرادة»، و«باريس»، و«عشاق مونمورانسي».

وقد كتب نثرًا «٥ مارس» سنة ١٨٢٦، وهو رواية تاريخية شائقة كانت آية في البلاغة، أجاد فيها وأعطى الحوادث حقها من الاستيفاء، يزينها وصف جميل بطريقة لم يجاره فيها مجار. وقصص في مجلدين سماهما «ستيللو» سنة ١٨٣٢ و«الاستعباد والعظمة في الجندية» سنة ١٨٣٥، وعدة روايات منها واحدة نظمها، وهي «مغربي فينيزيا»

^١ Le Comte Alfred de Vigny

سنة ١٨٢٩، و«لا ماريشال دانكر» سنة ١٨٣١، و«شاتيرتون» سنة ١٨٣٥، وقد حازت إقبالاً باهراً، ولما مثَّلتُ مدام «دورفال» الممثلة الشهيرة دور «كيتي» في هذه الرواية، كانت لها اليد الطولي في زيادة شهرتها؛ إذ اجتمعت مهارة التمثيل ورقة الإلقاء ببلاغة الإنشاء وما حواه من العواطف المؤثرة.

وقد انتُخبَ في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٤٥، وقضى أيامه الأخيرة في العزلة كئيباً كاسف البال، ومات بعد الآلام النفسانية والمتاعب الدنيوية حولاً كاملاً، وقاسى من نكد الأيام ما ترزح لثقله الأطواد بصبر يحسده الصبر.

وظهر بعد موته جزء ثانٍ من الشعر باسم «الأقدار»، ونشر في مجلة العالمين سنة ١٨٦٤، و«يومية شاعر»، وهي حاوية لشروح في التراجم وتأملات طبعها «لوي راتيسبون» سنة ١٨٦٧.

تفرد هذا الشاعر النابغة دون غيره من شعراء المذهب المطلق بأنه شاعر نفسه، فترى جميع ما كتبه نظماً كان أو نثراً لا يدور إلا على شكواه من الزمن ووصف ما يقاسيه من الهموم والآلام وتقلبات الدنيا، فترى جميع أقواله مترجمة عن وجدانه وشعوره بمرمى عام لا عن خيال، وجميع رواياته نموذجات لسحر البيان ورقيق العواطف وشدة التأثير. وكانت الأفكار الرئيسية لهذا الفيلسوف الحكيم تحوم حول: الوحدة التي تقهر النوابع، وخلو بال الخلق وجمودهم، وغدر المرأة وخيانتها، وعدم إحساس الطبيعة وتأثرها، والجلد والصبر على هذه المصائب والإحن، والخضوع لإرادة الخالق ومشيتته.

وكان من المجدنين حزيناً كئيباً، ولم يبلغ حد الكمال في روائع الابتداع ومدى هشات الإلهام، ولا تزيد قصائده عن الأربعين، وأغلبها غامض معقد المعاني، ولكن اثنتي عشرة منها سارت بذكرها الركبان، وعُدَّت من روائع البلاغة وسحر البيان، مثل: «موسى»، و«قارورة في البحر»، و«مصرع الذئب»، و«بيت الراعي»، و«جبل الزيتون»، و«غضب شمسون» وغيرها مما سبق ذكره من قصائده، وإن كان هذا الشاعر أقل شهرة من فيكتور هوجو ولا مارتين وألفريد دوموسيه، ولكنه معدود من صفهم.

بيت الراعي La Maison du Berger

إن كان قلبك يئن من وطأة أثقال الحياة، مضطرباً من ألمه كنسر جريح يحاول أن يطير مرفرفاً بجناحيه فيقعده ضعفه وتخونه قواه، يحمل كقلبي على جناحه المستعبد عيشاً ملئ نكدًا؛ فتارة ينيخ عليه بكلكله حتى يكاد يسوي به الأرض، وأونة يثلج^٢ صدره فيوشك أن يطير فرحاً، أو كان لا يدق دون أن يسيل جرحه، أو لم يشعر بالهوى وهو نجمه الذي ينير أمامه الأفق فيهتدي به.

أو كانت نفسك كنفسك أنهكها ما تحمله من: متاعب الدهر، ومرارة الحياة، وهوى إلى الماء مجذاف سفينتك، التي لبست ثوب الحداد؛ فهامت على وجهها في الماء والأمواج تلعب بها كما تشاء. فهناك أطرقى برأسك، ونوحي على نفسك، والتمسي في اللجج طريقاً لم يطرق، وانظري وأنت مرتعدة الفرائص إلى كتفك العارية؛ لتقرئي ما خطه الدهر عليها من أسطر القضاء المبرم بأحرف من حديد مصهر.^٣

أو كان جسمك يقشعر من هول آلامه الخفية؛ فيكاد ينشق منه الفؤاد كمداً، وقد غلب عليه الحياء مما أحاط به من الأنظار، فترينه يبحث عن مكنون الخدور ليواري فيها جماله، وليأمن مما يهينه من الأعين التي أفعمتها القحة.

أوجفت شفتاك من سم المين،^٤ واحمر جبينك حينما يسبح في يم أحلام دنسة لا يحوم عليها طائر الخيال وهي ناظرة مصغية إليك؟! فارحلي رابطة الجأش، قوية العزم، واطرحي المدن ظهرياً تنعى من بناها، ولا تدعي غبار الطرق يفترش قدميك، وانظري بعين المفكر إلى الأمصار المستعبدة والجبال التي أتعسها الإنسان باسترقاقه، ويممي^٥ الغاب العظيم والحقول الفسيحة؛ فإنها نعم الملجأ الحر كجزر معتمة يحفها الماء، وسيري بين المروج وببداك زهرة جميلة؛ فإن الطبيعة تنتظرك بسكوت رهيب. والعشب يرفع على قدميك ما تكاثف من ظله، وأنين وداع الشمس للأرض يؤرّج جميل الزنبق^٦

^٢ يشرح صدره.

^٣ حينما يبيض بعد الاحمرار من شدة الاحتراق.

^٤ الكذب.

^٥ اقصدي.

^٦ نوع من النباتات البصلية له أزهار جميلة بيضاء عطرة جداً.

كمباخر من لجين، وقد حجبت الدحال^٧ جذوع أشجارها، التي امتدت على بعد سحيق، واختفى الطود عن الأبصار، واسترسلت أفنان الصفصاف، ونام عسجد الشفق المحبوب في الوادي على بسط العشب الزمردي تحت ظلال ما نبت من الخيزران حول العين المنعزلة، ثم يتمايل الشفق في الأحراش^٨ الميade في الأفق، راكباً متن الفرار، باسطاً عباءته السوداء على الشواطئ، وقد فتح الظلام سجنه للأزهار.

وكانت على شاهقنا خمائل ملتفة من الخلنج، لا يستطيع الصائد أن يخترقها فترينها وهي أعلى من جباهنا رافعة رأساً تتيه كبرياء وإعجاباً، وتؤوي في الليل الراعي والغريب، فتعالي لتستري فيها هوك وزلتك، وإن كان الكلاً مضطرباً فيظهره أو قصيراً فلا يجلك^٩ فإني أجر إليك بيت الراعي، فيسير إليك الهويينا على عجلاته الأربع.^{١٠} وسقفه ليس بعالٍ عن جبينك وعينيك، وإن لون المرجان وخديك هما اللذان صبغا^{١١} هذه العربة الليلية ومحاور عجلاتها الصامته ومدخله معطر ومخدعه فسيح مظلم، وهناك في هذا الليل البهيم نجد لنا بين الأزاهير سريرًا، يحفه السكون ويضم رأسينا اللتين اختلط منها الشعر.

وسنرى إن كنت ترغيبين في بلاد الجليد، التي حينما يظهر فيها الكوكب المحبوب يفترس بأشعته ما يجده أمامه من الثلوج فيزهو ويشرق، ومواطن تنتهبها الرياح ويحاصرها الجليد بأسوار منيعة، وبها القطب اللعين وتلوجه المقوطة، وسنقتفي سير المصادفات الطائش، ولا يهمني ضوء النهار ولا الدنيا إلا إذا راقا في عيني.

من أنت يا حواء؟ أتعرفين كنهك؟ أتعلمين غايتك وواجبك في الدنيا؟ أتردين أن الخالق ليعاقب الإنسان مخلوقه لعصيانه وأكله من الشجرة التي نهاه عنها، اقتضت إرادته أن يسلط عليه حباً لذاته لا يسبقه حب آخر في كل الأزمان وأطوار الأعمار، وإذا كان أقصى هنائه شغفه بنفسه ترينه معذباً منغصاً منه.

^٧ الغابات.

^٨ الغابات أيضاً.

^٩ يستر.

^{١٠} من عادة الرعاة الإفرنج أن يصنعوا لهم أكواخاً من الخشب يأوون إليها على شكل العربات «الأومنيوس»؛ لتكون متحركة، ويذهبون بها حيث يشاءون، ويجرها جواد عند انتقاله.

^{١١} يقول: إن هذه المرأة، حيث كان بعنقها عقد من المرجان، كان لونه ينعكس هو ولون خديها على العربة، فصارت حمراء اللون.

أتعلمين يا أم الخلائق، لم سمحت مشيئة القادر بأن جعلك للرجل قرينة لطيفة؟
ذلك لينظر صورته مرتسمة في مرآة روح أخرى، ويسمع منك هذا الصوت الجميل المزري
بتغريد العنادل والذي لا يصدر إلا منك، وليشنف سمعه بصوت رخيم عذب ملؤه الحماس،
ولتكوني قاضه ورفيقه فنتولين حياته وتعيشين خاضعة لشريعته.

كلامك اللطيف السار به بعض كلمات استبدادية، وعيناك لهما نفوذ عظيم، ومنظرك
نو رواء^{١٢} فخم كما قال ملوك الشرق في أغانيهم، وكل يجتهد أن يحيد عن سهام حكمك
العاجلة، ولكن قلبك يكذب هيئتك الجريئة، ويخضع بلا جدال لشقاء الحظ ونكد العيش.
فكرتك لها طفرات^{١٣} كالغزلان، ولكنها لا تستطيع السير بغير دليل ولا سند؛ إذ
يميت رجليها الثرى وتتعب جناحيها الرياح، تغمض منها العين نهارًا بمجرد أن يسفر
الصباح، وتارة تصل إلى حالق بوثة واحدة فتزعجها الرياح، وفكرتك المتحركة لا يتيسر
لها أن تسهر وحدها دون خوف وملل.

لم يشب صفاتك التبصر الذي يمليه الجبن^{١٤} لأن قلبك يهتز ويرن لسماع صوت
المضطر المكروب كا «لأرج»^{١٥} في الكنيسة، ساد عليها السكوت والرهبة، فترينه يردد صدى
الأنين فيئن كأنه يتوجع لصاحبه.

كلامك كالنيران يهيج الجموع، ودمعك يطهر الإهانة ونكران الجميل، وإنك لتدفعين
الرجل من ذراعه فيهم واقفًا مسلحًا، وإنك لخير من يُهرع إليه لبث الشكاوى الكبيرة التي
تنبعث من الإنسانية الحزينة بصوت مختنق.

وحيثما يكاد القلب يتميز من الغيظ الطاهر ترين هواء المدن يخنقه عند كل ضربة
من ضرباته، ولكن أنين عذابها الاجتماعي يشاهد مجتمعًا فوق دخانها مكونًا كلمة
يسمعا من شط^{١٦} أو دنا بصوت جلي.

^{١٢} المنظر البهي.

^{١٣} قفزات.

^{١٤} يريدان التبصر وقت إغاثة الملهوف من الجبن؛ لأنه خائف من أن يبطش به الذي بطش بهذا المكروب
فيتبصر ليحمي نفسه، ولربما فات الوقت، وهلك المستغيث.

^{١٥} آلة موسيقية كالبيانو في الشكل، لكنها تختلف عنه بأنها ليست لها أوتار بل يحدث الصوت من
الهواء الذي ينفخ في مزاميره بأن يحرك الإنسان رجليه على منفاخ وقت التوقيع، وهي لا تستعمل إلا في
الكنائس.

^{١٦} ابتعد.

تعالِي فما السماء إلا كأنها هالة من نور تحيطك بزرقتها إذ تضيئك وتحملك، وما الجبل إلا معبدك والغاب قبابه، وما الطير يميله الهواء على الغصون الميade والأزهار وعرفها والعصافير وأنيها إلا لتنعش الهواء الذي تستنشقينه ولتحفه بالبشر والابتهاج، وما الأرض إلا بساط جميل مُدَّ تحت أقدام بنيك اللطيفة.

أحب يا حواء كل شيء في المخلوقات إذ أشاهدها منعكسة في نظرك التائه في مهامه الأماني، والذي يبتث أنى تنقل لهبه المزدان بجميع الألوان، وإن استراح بعد تقلبه زاد بهائؤه وانبعث سحره ففاق هاروت وماروت.

هيا ضعي يدك النقية المزرية بدُمي^{١٧} العاج فوق قلبي المتمزق، ولا تذريني وحدي مع الطبيعة التي أعرفها حق المعرفة لئلا يتطرق إليَّ الوجل منها، فقد قالت لي بلسان فصيح:

إني لدار تمثيل لا تعرف للتأثر معنى، ولا تضطرب تحت أقدام ممثليها. درجات سلمى من الزمرد، وفناؤها من المرمر الأبيض، ونحتت الآلهة أعمدتها؛ فلا أسمع صراخكم ولا أنينكم، وأكاد أحس بمرور تمثيل رواية المجتمع الإنساني، وأنشد في السماء المتفرجين البكم بلا طائل.

أجوب البلاد كالأعمى الأصم، وأجول بين الأمم التي يخطئها الحصر مزدرية بهم لا أميز بين دورهم وقبورهم، وشتائي يحصد النفوس له قرباناً، كما لا يشعر ربيعي بشغفكم به.

كنت قبلك أيها الإنسان جميلة معطرة، تاركة شعري يلعب به الهواء كما يهوى، متتبعة في السموات طريقي الذي اعتدته فوق محورها المنتظم؛ فتميلني المشيئة حيث شاءت يمنة ويسرة ككفتي الميزان، ثم بعدك كنت اخترق الفضاء، الذي يندفع كل فيه سائرة وحدي بوجه باش، وصمت يزيه العفاف شاقة الهواء بجبيني الواضح ونهديّ اللذين ارتفعا شممًا وكبرياء.

هذا ما سردته عليَّ الطبيعة بصوت جهوري، لبسته رنة الحزن، وإني لأمقتها وحائق عليها؛ لكوني أرى دماً يخالط أمواج بحارها وموتانا تحت عشبها، فترين أجسامنا

^{١٧} جمع دُمية، وهي: الصورة الآدمية الصغيرة المصنوعة من العاج، يُضرب بها المثل عند العرب للجمال فيقال: أحسن من دُمية.

بعد تحول مادتها تمتص جذور الأشجار عناصرها السمادية بشره ونهم، فتتمو وتعضم وتزهو، فكنت أقول لنفسي التي راقها هذا البهاء المقوت: «خير لك أن تحولي نظرك عنه، ولا تذرفي دمة واحدة أسفاً عليه، بل أحبي ما لا يشاهد إلا مرة واحدة.»

من يسعده الحظ ويشاهد لطفك وحنائك أيها الملاك الجميل الشاكي بصوت خافت كأنما هو محتضر؟^{١٨} من وُلِدَ مثلك ووُلِدَتْ معه الملاطفة كأنهما توأمان، إذ نراها تلمع مع البرق الذي يتلألأ في نظرك الفاتر، وتمايل رأسك اللطيف وقامتك الرشيقة التي لا تكاد تماسك من لينها وتبسّمك الذي أنعشه الهوى ونغصه بأوصابه.

عيشي وانتعشي أيتها الطبيعة الباردة، وتحكمي فينا كيف شئت فهذه سنتك، وازدري بالإنسان إن كنت في مصاف الآلهة، فما هو إلا عابر حقير جعله الله سلطاناً عليك. أحب عظمة الآلام الإنسانية أكثر من ملكك وفخامته التي لا تجدي نفعاً، وإنك لن تؤملي مني حباً.

ألا تبغين أيتها السائحة المكسال أن تسندي بجبينك إلى كتفي لنطير في جو الأمانى؟! فتعالِي من هذا البيت المتحرك الذي كُسي ببردين من دعة وسكون؛ لتشاهدي ما مر وما سيأتي من صور العالم ومناظره التي أحضرتها في ذاكرتي روح طاهرة من الله، وستحيا هذه الصور وتلبسها الأرواح لأجلك أمام هذا الباب، وترين البلاد العظيمة ممتدة أمامك وهي صامته.

وستتبع السلف غير مخلفين سوى ظلنا على هذه الأرض الناكرة للجميل، والتي جابها من مات قبلنا، وستحادث عنهم في الساعة التي يظلم فيها كل شيء؛ إذ يسرك سلوك منهج عفت رسومه واندرست معامله، فتسيرين وأنت غارقة في بحار الأمانى، مستندة على غصون لا تعلم حقيقتها باكية كإرطيميس^{١٩} على حافة عيونها حباً صامتاً ما فتئ عرضه للحدثان.

^{١٨} في حالة النزاع عند الموت.

^{١٩} إلهة الصيد والغابات في خرافات اليونان.

مصرع الذئب La Mort du Loup

كان المزن يمر فوق القمر الملتهب كحريق يتصاعد منه الدخان، وقد حلك الظلام في الغاب وغاب الأفق عن العيون، ونحن سائرون سكوّتا على العشب المبلل، تحفنا خمائل كثيفة من الخلنج وشجر التنوب، الذي يكاد يناطح السماء، فلمحنا آثار أظفار كبيرة خطتها أرجل الذئاب السيارة التي أخذنا عليها المسالك.

أصغينا حتى كدنا نقطع التنفس، ولم تهمس منا الأقدام ولا السهل أو الغاب بأدنى صوت غير مزولة الهواء،^{٢٠} التي كانت تبعث بصريها في الجو، وكان النسيم يمر على أعالي الأبراج وأشجار البلوط، التي اضطجعت على ما يحيط بها من الصخور. وبيننا نحن في هذا السكون والصائدون بالمرصاد؛ إذ لمح شيخ منهم أثرا جديداً لمخالب عظيمة لذئبين وجروين؛ فأنبأنا همساً فجهزنا الخناجر وحشونا البنادق، وسرنا الهويين فارقين ما يعترضنا من الغصون المشتبكة، فوقف ثلاثة منا ولبثت مكاني لأرى ما استلفت أنظارهم؛ فلمحت عينين برّاقتين، ومن أمم أربعة أشباح ترقص في سنا القمر بين خمائل الخلنج كديدننا اليومي، ولما أقبل الرئيس كانت الكلاب متهللة تشبه صغار الذئاب في فرحها ورقصها، ولكن الأخيرة كانت تمرح دون لغط، وقد خيم عليها السكون حذرة لا تنام إلا غراراً؛ إذ على كئيب منها الإنسان عدوها اللدود.

وكيف تنام الطير في وكناتها وقد نصبت للفرقدين الحبالُ

وكان الذئب الكبير واقفاً، وعلى بعد منه أنثاه مضطجعة على جذع شجرة، كأنها تمثال المرمر الذي كان يعبد الرومان، ممثلاً ذئبة حاضنة «ريموس ورومولوس»^{٢١} اللذين وضعهما الرومان في مصاف الآلهة الصغيرة.

ثم أقبل الذئب وقعد باسطاً ذراعيه منشباً أظافره في الرمل، ولما استيأس وخاب رجاءه في النجاة؛ إذ سدت عليه طرائقه، أمسك أقوى الكلاب من رقبتة بفكين قويين كأنهما قدا من حديد، وجالد قرنه جلد المستميت، ولم يتركه رغماً عما اخترم جسمه من رصاصنا المتدفق من بنادقنا كالمطر وخناجرنا المغمدة في أحشائه، ولم يزل ممسكاً

^{٢٠} آلة تبين الجهة التي تهب منها الرياح، وعبرنا بهذا اللفظ؛ لأنها ما كانت معروفة عند العرب.

^{٢١} اللذان أسسا مدينة رومة.

خصمه غير مبالٍ بما أصابه؛ حتى دق عنقه وتركه جثة بلا روح، وكانت الخناجر الغائرة في جسمه أشبه بمسامير سمرته على الكلاء، وقد ارتوى العشب من دمه وتحيط به بنادقنا كرزايا قامت على سوقها، وما فتئ ناظرًا إلينا وهو يلحق ما سال من دمه حول فمه، وبدون أن يتأمل كيف هلك أطبق عينيه ومات، ولم ينبعث منه صراخ ولا أنين.

أطرقت إلى الأرض مسندًا برأسي إلى بندقتي مفكرًا بغير وصول لغاية، إذ حدثتني النفس أن أقتفي الذئبة وجروبيها التي كانت في انتظاره على ما أظن، ولولا ولداها لما تركت أرملتنا الجميلة الحزينة إلفها يحتسي وحده صاب المصاب، ولكن واجبها حتمً عليها أن تحرس صغارها وتكلأها بعين عناينها ولتدربها على النفور من عهود المدن، التي ارتبط بها الإنسان مع الأنعام، التي استخدمها مهما أودى بها السغب؛ فتراها تطارد أمامه أول من امتك الغاب والجال لتحصل على ركن تأوي إليه.

أسفي حينما أفكر في الإنسان ولو طاولت عظمته السماء، فإنني أخجل من ذكره لضعفه وخور عزمته، وإنك وحدك أيتها العجماوات^{٢٢} الفخمة العظيمة التي تعرف كيف تُفارق الدنيا وآلامها، وإن تأمل الإنسان وجد أن أفضل أعماله السكوت، وما سواه ضعف وخور.

لقد عرفت حقيقتك أيها السائح إذ اخترقت نظرتك الأخيرة أعماق قلبي، كأنها تقول لي بلسان فصيح: «إن استطعت أن تبلغ نفسك مبلغ روحي، فتأبر على الاجتهاد والتأمل لتصل إلى هذه الدرجة القصوى من الجلد والصبر والإعجاب بالنفس، فإنني ولدت في هذه الدحال ونشأت بها، وقد علمتني صروف الدهر أن الصراخ والعويل والتوسل لهي صفات الجبن والعجز، والواجب يقضي عليك أن تقوم بأعباء ما عهد إليك وكلفت به وناداك إليه حظك بعزيمة، تسبق العضب في المضاء مهما بلغ الأمر منتهاه من الشدة والمضض، وبعد اللتيا واللتي كن مثلي كاظماً آلامك، ثم مت صامتاً دون أن تنبس ببنت شفة.»

^{٢٢} العجماوات، والأنعام: البهائم الآتسة.

فرنسوا كوبيه^١

نابغة من شعراء وروائيي العصر الفرنسيين ممن يفتخر بهم الشعر المطلق، ولد بباريس سنة ١٨٤٢.

ظهرت أول مجموعة من نظمه بعنوان «صندوق البقايا المقدسة» سنة ١٨٦٦، وكان أول ظهوره في عالم الشعر عاطلاً من مميزات ونفحاته، فلما صدرت روايته النظمية «جواب الآفاق» سنة ١٨٦٩ رفعت قدره، واستلفتت إليه الأنظار من كل فج عميق حتى عُدَّ من فحول الشعراء، وهي من معجزات نظمه ودرية يتيمة في بابها، لم يأت أحد بمثلها غير ما حوته من رقيق العواطف ودقيق الإشارات.

وكتب عددًا عظيمًا من الروايات التمثيلية والمجموعات الشعرية، ومن أشهر رواياته التمثيلية: «عواد كريمون» سنة ١٨٧٦، وهي شائعة مؤثرة، و«سيفيروتوريلي» سنة ١٨٨٣، و«اليقويون» سنة ١٨٨٥، و«لأجل التاج» سنة ١٨٩٥، وهي رواية تاريخية نظمها من أبداع ما كتبه الشاعر، سحرت العقول ببلاغتها ومتانة قريضها وما شملته من النفحات العلوية والفيوض الربانية.

ومن نخب شعره: «المودات» سنة ١٨٦٨، و«المساكين» سنة ١٨٧٢، و«بين المنازل والنزه» سنة ١٨٧٥، و«الدفت الأحمر» سنة ١٨٧٤، و«المقاطيع الشعرية والمراثي» سنة ١٨٧٨، وعدد وافر من القصائد نُشِرت على حدة، لا سيما «أوليفيه».

^١ .François Coppée

وما كتبه نثرًا مثل «القصص»، وهي في خمسة أجزاء، واشتهرت برقة العواطف وجملة روايات نثرية، وعدد من مجموعات الحوادث التاريخية، منها: «الألم العظيم» سنة ١٨٩٨، وهي تنبئ بحصول بعض من الانتقال الديني للمؤلف، وقد انتُخب في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٨٤، ثم اشتغل بالسياسة، وعُيِّنَ رئيس شرف لحزب «الوطن الفرنسي» سنة ١٨٩٩، ثم استقال عقب انتخابات سنة ١٩٠٢، ومن هذا الوقت أمسك اللسان وطرح القلم ولم يكتب إلا ما ندر.

وظهر في هذا العهد الأخير له ثلاثة أجزاء: الأول منها «في الصلاة والحرب»، وهو نظم سنة ١٩٠١، والثاني «قصص لأيام الأعياد» سنة ١٩٠٢، والثالث «أشعار فرنسية» سنة ١٩٠٦، وجملة مواضيع وقصائد ظهرت في الجرائد والمجلات وكان لها استحسان باهر.

وقد تبرع للمجمع العلمي الفرنسي بجائزة للشعر قدرها ألف فرنك تُمنَح كل سنتين.

مهر وبهر شاعرنا هذا في أغلب أنواع الشعر، لا سيما المراثي والملاحم، وكان من الشعراء المحققين، وحاز القدح المعلى في الشعر القصصي المألوف وأنواع الشعر المبتكرة في بابها، وقد أجاد في وصف المناظر الطبيعية كقوله في وصف ضواحي باريس: «أرض فضاء جرداء، وأشجار هيفاء، وطرق سوداء، افترشها ما يلفظه^٢ دوحها^٣ من اللحاء،^٤ ولكن لها نصيب وافر من الشجو والطرب يأخذ بمجامع القلوب».

وكان مقتدرًا في وصف أخلاق القرويين وعاداتهم وصفًا صادقًا رقيقًا شجيًا يهز القلوب طربًا، حينما يصف البؤس المتواصل والفقر المدقع والفضائل المجهولة؛ فلذلك وسموه بـ «شاعر المساكين»؛ لأنه في هذه الطبقة الصغيرة الحقيرة أسعده القريض وحده بنفحات مدهشات قلدته زعامة^٥ هذا النوع الذي ابتكره.

وقد وُفِّق في التمثيل بين المذهب المطلق والمذهب المقيد؛ فأعطى للأخير العويص الفهم رقة تعبير الأول وسلاسة تركيبه.

^٢ تطرحه.

^٣ الدوح الشجر.

^٤ قشر الشجر.

^٥ رئاسة.

وهو في الأدبيات يشبه شعراء المذهب المقيد، لا سيما «كورنيي Corneille»، وقد رزق منها قسطاً وافراً ومكاناً رفيعاً؛ إذ تعد رواياته التمثيلية من أعظم الروايات الأخلاقية.

وكان من أمهر الناثرين، وكتب في الجرائد في قسمي: الأخبار، والملحقات الروائية نثرًا سلس العبارة رقيق التعبير ملؤه العواطف والوجدان الحي، كما أنه أجاد أيضاً في المواضيع الفكاهية.

وقد توفي بباريس في ٢٣ مايو سنة ١٩٠٨، واحتفلوا بجنائزه احتفالاً شائعاً يليق بمقامه الرفيع وبكاه القريض الفرنسي قبل الشعراء.

جواب الآفاق Le Passant

رواية تمثيلية ذات فصل واحد

(يحتوي المسرح على روض بهيج خلوي، يضيئه القمر، وعلى يمينه بيت جميل، توفرت فيه أسباب السرور بصنوفه، قائم على سفح أكمة، وبجانب الحائط مقعد خشبي قديم، وتظهر من بعد داخل المسرح معالم مدينة فلورنسا، ولا يكاد يحققها الرائي، والسماء صافية تتلألأ في كبدها نجومها.)

سيلفيا (وحدها ترى سيلفيا لابسة ثوباً أبيض عارية الكتفين والذراعين، متكئة على حاجز المشى، مسرحة نظرها في روضها الجميل): لعن الله الحب فقد صير العين جامدة والدمع عصياً.

(ثم تنزل ببطء إلى حضيض الأكمة.)

لقد قضيتُ صباي في سلب العقول واختطاف النُهي، وأنا الأميرة الخبيثة، ويقبل يدي الجميع كملكة وهم صاغرون، وكان قلبي لا يشعر ولا يحفل بقبلهم الحارة، فمن يخال أنني بعدما بلغت هذا الشأو البعيد أسأم وأمل.

السماء باقية على صفائها الجميل، مضى عليها شهران ولم تمطر، والصيف وسكونه ولياليه المحبوبة، ولا ريب أن الشعراء والمغنين يسعدهم الحظ وينفحهم بتشبيهات سمجة، وأرى اسمي تتقاسمه القوافي مع أسماء الأزهار؛ فلا تكاد تقع عيني على قصيدة إلا وأبصر اسمي فيها، حتى امتلكت القلوب وصرت أُغْبَط على هذه المنحة الجليلة.

وهؤلاء المتملقون الصاغرون لا أنظر إليهم إلا بعين ملؤها الازدراء والاحتقار، وهذا «التوسكاني» بطل الوقائع والحوادث المتقلب في النعم الجزيلة، يطرح تحت قدمي الحلي من ذهب وجوهر، وذاك القاضي يتيه كبرياء وإعجاباً، والآخر وزير مال «جنوة» يتنافسان في عرض نفيس الماس وغرر الدرر أمام ناظرَيَّ؛ لينظرا لمن يكون الغلب والظفر، فيستلفت عيني نحو هديته الغالية، ولكن هيهات لما يؤملون، فإني أبغضهم واحتقرهم، وكل هؤلاء الرجال ذوي القلوب الخوالي ليتهم يحبونني مفاخرة كحبهم لي لقضاء مآربهم.

إنني لأتألم من هذه الحياة؛ إذ الموت خير من حياة بلا حب، وقد أصبحت لا أملك شيئاً من ذخائر الحب حتى زهرة جافة أحفظها في كتاب، أو خصلة من شعر، أو كلمة حلوة تسترق القلوب يفكر فيها الإنسان قبل نومه؛ حتى صارت الحياة خلواً من المسرات، كما لا يشوبها ضر أو فزع أشكو أو أستغيث منه؛ فوا أسفا صرت لا أستطيع البكاء ولو خفية، أواه من حزن ضاق به الصدر ذرعاً، وهم يكاد يتفطر منه القلب. (مشيرة إلى المدينة التي تظهر من بعد) هذه فلورنسا، والليل صافي الأديم، والسماء مقمرة، ولربما نظرتني تلميذ مرة فوق في حبال غرامي، وغلبه حياؤه فعف وكتم حبه، وجلس بجانب نافذته شاخصاً إلى السماء يناجي النجوم، فيصعد الزفرات تارة ويثمل من نشوة أمانيه طوراً.

ليت شعري كيف يحفظ العهد لحب لست له أهلاً، ولكن لو عثر به الجد ورماه في طريقي المنكود؛ فلا يظن أن قلبي يطاوعني على خذلانه وتركه ليتيه في بيداء هيامه. وإني لأعاهده على أن يشاطرني آلامي، كما سأهبه وحده نفسي وأضن على كل من يخطبني حبي.

زانيتو (يغني على بعد):

أحبب بفصل جاء بعد شتاء	فصل الربيع ووصل كل هناء
غارث ذكاء لحسنه فتألفت	ورمت أشعتها على الغبراء
وكذلك الأوكار دبّ دببها	والجو خامره نسيم صفاء
والريش من قمريها أنى مشى	ماشٍ رآه فوق وجه الماء

سيلفيا: كل ينغصني ويغيطني حتى هذا الصوت الرخيم في الليل البهيم وسرور
الخلق يتبعني ويقتفي مني الأثر، فيا لقلب حزين وبال كاسف، وإني وذاك الصاح على
طرفي نقيض؛ فأنا ألعن الربيع وهو يترنم بتمجيدته.
زانيتو (يغني وقد اقترب صوته):

يا ابن الكرام بكاعب هيفاء	فاسلك بنا سبل الفراش لنلتقي
بالقرب من عين تروق الرائي	فهناك نمرح في ظلال خميلة
تروي الصدى في هذه البطحاء ^٦	ونشاهد الغزلان غزلان النقى

سيلفيا: النغم شجي والصوت عذب يستهوي الأفئدة، ولكني لا أعلم حال هؤلاء
الذين يدعون الحب؛ فلندخل ولنترك الميدان فسيحاً للذين أسعدهم الحظ والهناء.
(ثم تصعد إلى بيتها وهي تنظر حائرة إلى الجهة التي ينبعث منها الصوت،
ويأتي زانيتو ومزهره^٧ على كتفه متأبطاً بعباءته، وطرفها يكنس الكلا وراءه،
ويدخل متهللاً دون أن يلمح سيلفيا)

زانيتو (وهو واقف في صحن الدار): رعى الله ليالي الصيف التي تمكن المسافر
من الرحل الشائقة، إذ يتناول عشاءه في قرية حقيرة تحت دوالي الكروم، وأمامه منظر
الغروب البهيج، ثم يتم ترحاله في شروق القمر، ولا مطية له إلا قدماه يسير مترنماً
برقيق الأنشيد كي لا يشعر بالنصب. سقياً لليالي الصيف إذ السماء صافية، تتلألأ بها
دراريها مبتسمة للمسافر، لامعة من خلال أشجار الطريق.
عشت ونعشت يا ليالي الصيف أنت والأمل، وهأنذا على مقربة من فلورنسا، وسأعرف
غداً إن كان العهد باقياً على حبها لسماع نغام العود وشجي الأغاني الغزلية، ولكني أرى
النهار بعيداً وثيابي رقيقة.

^٦ إننا لم نستحسن ترجمة هذه الأنشودة نثرًا، فالتمسنا من أحد فضلاء شعراء العصر نظمها، وأشار
علينا بألا نذكر اسمه.

^٧ المزهر هو: العود.

ومزهري هذا أحمله على كتفي كضغث على أباله، وأهل الخان الآن في دعة واطمئنان،
يطرق بابهم الطارق حتى يكل ساعده وهم كأنهم صم، وبعد الجهد الجهد يفتحون
وقد علا وجوههم السأم والضجر، فمن لي بركن آوي إليه وأقضي فيه ليلتي هذه.

(ثم يلمح المقعد القديم بجانب الحائط.)

هذا مقعد عتيق ولو أنه مضجع خشن لكن الليل هادئ رائق، ونعم العشب من
وسادة، وإن شعرت ببرد الليل فستصلح الشمس في الصباح ما أفسده المساء، وما عليّ
إلا أن أرقص قليلاً فأدفاً وأستأصل من جسمي شأفة البرد.

(ثم يتهياً للمنام.)

سيان عندي هذا المضجع القز^٨ وفراش وثير^٩، فما أجمل النجوم وما أحلى خان
الخالق الذي لا يكلف أجراً!

(ثم يمتد على المقعد ملتحفًا بعباءته وينام.)

سيلفيا (ناظرة من سفح فناء دارها): يا لك من غلام مسكين قد فعل كما قال.
كنت أشكو منذ هنيهة من جمال الليل فما أخبثني!

(ثم تنزل مسرعة إلى الحضيض.)^{١٠}

يلزمني أن أدعوه لأنني لم أقم بواجب الضيافة ولم يفتني الوقت بعد. يشكو الإنسان
من الصيف؛ لأنه يكون فيه عرضة للشجون، ويود لو يكون الليل حالاً معتماً، فينسى
جميع هؤلاء البؤساء الذين يطوح بهم الحظ المنكود في كل شرق وغرب ولا من يؤويهم
ويواسيهم.

(ثم تنظر إلى زانيتو وهو نائم.)

^٨ أقمّ المضجع فهو قز؛ أي تترب وخشن، ولم يطمئن به النوم.

^٩ لين ناعم.

^{١٠} أسفل الجبل.

إنه لنائم نومًا هنيئًا سائغًا ولا ريب أنه اعتاده وألفه، ولكنني صامتة مضطربة أمام هذا المشهد الرهيب من عزلة ووحدرة وليل أريج، وغلّام نائم بهيج، وإني ليخيل إليّ أنني أسمع دقات قلبي وكأنّ عاملاً جديدًا يحرك منه ما سكن ويثير ما هدا حتى كدت أفقد صوابي.

(ثم تقترب من زانيتو وتطيل إليه النظر).

وا أسفا إنه لمائل لأمانيّ.

(ثم تأخذ بيده بلطف).

هيا استيقظ فإن هواء الليل ضار.

(زانيتو يستيقظ ويرى سيلفيا، فيدهش ويأخذه العجب).

أأنت من بنات الجن؟! لقد كنت الساعة أراك في أحلامي، وكنت أنظر أشباحًا بيضاء تمر عليّ تلو بعضها.

سيلفيا: وأها لك! لم تكن إلا أشعة الكواكب تتخلل الأشجار.

زانيتو: لا، فما رأيته في عالم الرؤيا هو عين ما أشاهده الآن، وإني لأتصور أنني عرفت صوتك أيضًا، ولو أن النائم لا يعي شيئًا لكن روحه تسبح في عالم الخيال؛ فترى وتسمع وتحدث، وكنت أسمع أيضًا أنغام موسيقى شجية لم أسمع مثلها في المقام الدنيوي.

سيلفيا: ما سمعته من الألحان الموسيقية لم تكن إلا الأشجار تعبت بها الصبا؛ فتمتاعيل غصونها ويسمع حفيفها.

زانيتو: ولكن من تكونين إذن؟

سيلفيا: إنني مفاجئة أعرض عليك طعامًا ومأوى إن كنت في حاجة إليهما
زانيتو (وهو مطيل النظر إليها): شكرًا لك فقد تناولت عشاءً متأخرًا واستكفيت من النوم.

سيلفيا (تخاطب نفسها على حدة): اتقي الله وكوني عفوة أيتها المرأة القاسية! ألا تفكرين أن الكل يؤأخذك بل يصب لعناته عليك إن مس حبك هذا الغلام الغر بسوء.

(ثم تخاطبه.)

ألا يحق لي معرفة مَنْ ينام تحت نافذتي؟

زانيتو: لك ما تبغين فإنني لا أروم الخفاء، ومهنتي موسيقار^{١١} واسمي زانيتو، ومنذ طفولتي وأنا أجوب الآفاق، وحياتي أسفار ورياضة، وأذكر أنني لم أبث ثلاثة أيام تباعاً تحت سقف، وأعيش من وراء عشرين مهنة صغيرة لا يحتاج إليها، ولكن أحقرها عندي أجلبها نفعاً.

أعرف كيف أنزل السفينة في البحيرة وكيف أسيرها، وأعلم كيف أنتفي من الحديقة الغناء غصنين لدنين أشد عليهما الشباك بمثابة سرير وثير، وأدري كيف أطلق الكلاب السلوقية مثنى مثنى وراء الصيد، وأعرف كيف أذل الصعب من الجياد، وأعلم كيف أصوغ القوافي وأنصدها كعقود الجمان في جياذ الحسان، وفضلاً عما ذكرته من الفضل الذي لا يدانيه فيه مدانٍ، في حلبة الرهان، أدري كيف أربي البزاة والصقور وأدربها الصيد، وفي الموسيقى — لا سيما المزهر — أعدُّ من الرؤساء الفضلاء.

سيلفيا (وهي باسمه): أنت حائز لكل هذه المهن والفنون وتقضي أغلب لياليك

طاوياً.^{١٢}

زانيتو: لقد صدقتك فيما سردت، وإنني لا أعرف لنفسي ترتيباً ولا قاعدة أسير عليها، وساعة طعامي ليست محددة إذ طالما نسيته؛ لأن بلادنا لا تعرف للضيافة حقاً، وكثيراً ما أكون بعيداً عن بيوت الهناء والنعيم منزوياً في ركن من غابة، وقد رددت قبل مجيئي غائلة السغب^{١٣} بقليل من البندق، وذلك جعل في روح السنجاب^{١٤} ورشاقته. وبعد فكان الناس يحسنون وفادتي، ويلقوني بالإيناس والترحاب لأنني لا أشغل مكاناً عظيماً ويكفيني الشيء النزر.

^{١١} موسيقي.

^{١٢} جائعاً.

^{١٣} الجوع.

^{١٤} حيوان صغير في حجم القط، وله ذيل طويل، ووبره مسترسل يأوي إلى أشجار البندق.

ألج القصور ليلاً وأعرض على أهلها أن أشنف أسماعهم برقيق الأغاني وشجي الألحان وهم على المائدة، ثم أصدح بصوتي الرخيم الرنان؛ فأسترق الأسماع والقلوب، وأنال كل مرغوب ومطلوب، ويعطف عليّ رب القصر وينفحني بذراع من الأروى^{١٥} الشهى وطير سمين، وإن اشتهيت شيئاً من الصحف الحارة، فما هي إلا نظرة إليه تكفيني مئونة الطلب، وإن هو إلا لمح البصر أو هو أقرب ويكون أمامي الصنف الذي تاقَت نفسي إليه.

سيلفيا: قد وعيت جميع ما سرده، وأظنك متمماً ترحالك إلى فلورنسا. **زانيتو:** سأيمهما بلا ريب، ولكن لو اتفق وتقاطع أمامي طريقان أقصد أجملهما وأضرب عن عزمي السابق. أتبع أهوائي في أسفاري وأجوب البلاد كالسحاب أو كالأوراق الذابلة تطير كما تهوى الرياح. لا يُعلم من أين أتيت ولا أين ألقى عصا الترحال؛ فمثلي كمثل الشاعر أو المجنون يهيمن في كل واد. أتبع الطير في مسيره وتسمع أغاني مرة واحدة؛ لأنني لا أمكث في البلدة إلا ريثما أبتاع بعض الأزهار الجميلة لأزين بها مزهري. أنا الرحالة العجيب الذي حكم عليه الناس بالخفة والطيش، ويمرح في ربيعه السادس عشر، إن أمطرت السماء استترت تحت الخمائل المتكاثفة ريثما يسكن المطر، ثم أخرج من الغابة المبللة ضاحكاً من قوس قزح.

لم أجشم نفسي للحصول على الغنى والسعادة، كما أنني لم أصادفها قط، وإنني كالحاج المسافر في ضوء القمر يشرب من الينبوع المنفجر، ويخوض النهر من المخاضة. مداوم سيره لا يقعه تعب ولا نصب.

سيلفيا: ألم تفكر قط في الإقامة بعد هذا السير المتواصل الذي تبثُّ فيك روح النزق والطيش؟! وإنك لتؤمِّل الأمانى والآمال من الغد الخفي المبهم. أما بصُرت في ترحالك بمنعطف الطريق ببيت صغير خيم عليه السكون والدعة، وهو في حلته البيضاء الناصعة تكسوه النباتات المتسلقة، التي حوت من أحاسن الأزهار وأريج الورد، وببابه كلب جميل أمين.

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

وبنافذته المفتوحة فتاة هيفاء دعجاء تحييك وأنت مار.

^{١٥} نوع من الحيوانات يقرب من الغزلان شكلاً.

زانيتو: طالما تيقنت أن أناشيدي أشبه بحجر يقذف به في خميلة؛ فهيج منها ما كمن من الأفاعي كبيرها وصغيرها، وإنني أمام هذا المنظر الذي لا يميل إليه إلا كل حوشي سوقة أراني لا آلفه؛ لكوني أحب أن أترك الأسر وشأنهم من الدعة والسكون.

سيلفيا: ألا تغرق في بحار أمانيك حينما تبتسم لك الفتيات الحسان بما يخجل البدور، ويطحرن عليك من الأزاهير التي يعلقنها بصدورهن؟!

زانيتو: وما الفائدة من جراء ذلك؟ بل كنت أرسل إليهن قبلة من بعيد وأذهب لشأني، وقد بينت لك أن أؤمن الأشياء عندي الحرية، وإن أحببت وأطلقت لنفسي العنان في الحب صرت أسيره وأفقد رحلي الشائقة، وإنني الآن خفيف العبء لا أحمل إلا ريشة أزين بها قلنسوتي ومزهري على كتفي، وأما الحب فحمل ثقيل ترزح من ثقله القلوب الشداد.

سيلفيا: إنك لطير صعب المراس، لا يُستطاع إمساكه في قفص ليستأنس ويستألف. **زانيتو:** إن ذلك لمحال.

سيلفيا: ألا يفكر طيرنا أن يصنع له عشًا يومًا ما يأوي إليه؟! **زانيتو:** لا! فإنني أرتعد خوفًا حينما أسمع اسم الحب، وإنك لا تعرفين حلاوة السفر ولذته، كالفراش^{١٦} المتنقل على جميل الأزهار لا يلبث على إحداها إلا ريثما يمتص رحيقها.^{١٧}

سيلفيا: ليست السعادة ما تظنه. إنك ذاهب إلى فلورنسا ولا أمل يقودك، يرشدك الاتفاق وتأخذ بيدك المصادفات، وقد استعذبت الطريق الجميل، ونسيم الليل العليل الليل، تتبع خطافًا^{١٨} طائرًا، أو صبا^{١٩} سائرًا. **زانيتو:** الأمر كما وصفت.

^{١٦} أبو دقيق.

^{١٧} اصطلاح كتاب علم النباتات على تسمية المادة العسلية التي تفرزها بعض الأزهار بالرحيق.

^{١٨} الطائر المعروف عند العامة بعصفور الجنة.

^{١٩} نسيم الصبا.

سيلفيا: قد عرفت سيرك، ولكن غاب عني مقصداك.

زانيتو: إنه لمبهم.

سيلفيا: وماذا يكون؟

زانيتو: إنني لا أعلم ما في الغد.

سيلفيا: أود أن أمد إليك يد المعونة.

زانيتو: لست في حاجة إليها، وربما لا أخطو خطوة واحدة بعد جميع ما مضى، وإن نفسي تحدثني بأمر ذي بال، وذاك أن مثلي من لا يعلم له أبًا ولا أمًّا لا يبعد أن يكون ابن قروي حقير أو ابن سيد أمير، ولكن يغلب على ظني أنني ولدت في صبيحة يوم جميل من أيام الربيع؛ لأن شعاع السرور المرتسم في رأسي يمنعي أن أظنني يتيمًا، ولغاية الآن، وأنا جائل كالفلو^{٢٠} فرحًا مرحًا، لا أطمع في عيش أرقى مما أنا فيه، ولكنني يلزمني أن أبوح لك يا سيدتي بما يخالج صدري لما آنسته منك من اللطف والرقّة في مخاطبتي، فقد عاودتني الذكرى القديمة المبهمة، فتذكرت أختالًا أعلم الآن خبرها وما فعل بها الدهر.

وحينما أفهمتنني حقيقة المأوى الذي تكتنفه السعادة من كل صوب وهو بعيد عن أعين الناس تظله النباتات الجميلة التي اكتست بأبهى الأزاهير، أراني الآن قد ابتدأت أن أشعر بوطأة التعب والنصب مما تكبدته من مشاق الترحال والأسفار.

ولقد تاقت نفسي لما عرضته عليّ، وأراني منقادًا طائعًا لنصحك، فكوني طيبة القلب كما أنت جميلة الطلعة، أفلا تجربين إذن أن تحفظي هذا الطير الشارد بجانبك ليألف ويستأنس بعد نفوره؟!

وإنني أعاهدك بأن أهرج عيشتي السابقة التي لا نظام لها وأعيش هنا، ولا قصد لي أن أقضي عامة اليوم جالسًا على وسادة تحت قدميك، أسامرك بما يقتل الوقت وأشنف منك السمع بأناشيد ترنح منك الأعطاف وترقص ما يجول بخاطرک من الأمناني والآمال.

سيلفيا: ما أنت إلا طفل!

(ثم تناجي نفسها على حدة.)

^{٢٠} ولد الفرس.

ما لي أراني مضطربة خائفة من أن أحوزه بجانبني وأحوطه بصنوف الاعتناء والحنان، ويستهوئ سمعي حينما يناديني: يا حبيبتي، وهناك محط آمالي!
زانيتو: فهل لك فيما بحث به إليك؟
سيلفيا (على حدة): وإن قبلت؟ لا فذاك محال! ولكنه هو الذي عرض عليّ الأمر بنفسه.

زانيتو: أعلم يا سيدتي أن هذا منك كريم عظيم، ولكن هل تسمح إرادتك؟
سيلفيا (على حدة): سيعلم غداً من أنا.
زانيتو: ما رأيك أخيراً؟
سيلفيا: لا أستطيعه.
زانيتو: ولم لا تستطيعينه؟
سيلفيا: لست المرأة التي تظنها؛ إذ لا يقوم بأعباء ما تتمني إلا سيدة سرية لتعول أمثالك من الشعراء والموسيقيين وترعاهم بعظيم عنايتها، أما أنا ففقيرة يعوزني المال والرجال.

زانيتو: أما لك حاجب من الشرفاء؟
سيلفيا: لا.
زانيتو: ولا خادم؟
سيلفيا: كلا.
زانيتو: إنني أقنع بثمرة واحدة أتناولها في العشاء، ويكفيني كرسي أنام عليه.
سيلفيا: ليس في الإمكان.
زانيتو: ولكن.
سيلفيا: إنني أرملة لم تقض أيام حدادها وعائشة وحدها.
زانيتو: وا أسفاه يا سيدتي، فإنني لا أتطلب إلا أن أعيش تحت قدميك.
سيلفيا: قد طلبت محالاً.

زانيتو: وداعاً لحظ سعيد هنيء تمناه القلب واشتأقت إليه النفس، ولكني لا أياس من رحمة الله؛ فلربما صادفت من سيلفيا من الهناء أسعده ومن النعيم أرغده.

سيلفيا (على حدة): ماذا يقول؟

زانيتو: حيث استحال العيش بجانبك في الدعة والسكون مما حدثتني به النفس، وأنا مصغٍ لما سردته عليّ من الحديث، فعلى الأقلّ جودي عليّ برأيك ومحضيني النصح؛ فقد أنبتت منذ أيام أن فلورنسا سيدة لم يثبت أمامها قلب من القلوب، ونظرة منها أشد فتكًا من السهم المريش، وكافية لأن تطرح تحت قدميها أشد الرجال بأسًا، ولا ريب أنك تعرفين اسمها، وهو «سيلفيا»، ويقال: إنها تعيش ببذخ ورفاهية، والناس تفد عليها من كل فج عميق، والسعيد من وفق لأن يمكث عندها بضعة أيام، وهي تهوى الموسيقى الشجية من يد عالم ماهر، ولا سيما المزهري، وقد صممت أن أيمهما.

سيلفيا (على حدة): اللهم رحمتك!

زانيتو: إنني لا أستطيع أن أجد لي مهنة في قصرها، ولكن نفسي تثور فيها عواطف الكبرياء والإعجاب، ويشاع أنها ذات جمال ساحر وحسن باهر، ومن عاش بجانبها لا يستنشق إلا نسيماً مشئوماً مسموماً، وإنني لموجس خيفة، فما قولك يا سيدتي وقد اتّمتنتك وجعلتك موضع ثقتي؟

وإنك نبذت ما عرضته عليك، ولكن مهلاً؛ فإنك لم تبتي الأمر بعد، وليت شعري لم ارتسمت هذه الفكرة في مخيلتي، وهو أن قلبك نحوي مفعم بحب يفوق حب الأم لولدها، وتودين لي الهناء والسعادة، وإنني لتابع لإرشادك ما عشت، فهل أقصد سيلفيا؟

سيلفيا (على حدة): قد فهمت الأمر، وسيعود غداً هذا العابر الذي يسمى الحب بلفظه ومعناه، بل هذا الخفي الذي ملأ قلبي حنوًا ورقة، وقد طوّح به إليّ الحظ، وإن هو إلا السعادة المارة وأنا أطردها! لا، فالنفس لا تقوى على إخماد عواطفها الثائرة، وإنني أريد أن ...

زانيتو: ألا تعيرينني سمعك قليلاً؟! فإنك التزمت الصمت.

سيلفيا (على حدة): إن هذا لعار، ولكنني سأعتذر بأن حظينا السيئين اختلطا مع بعضهما.

(على مسمع منه.)

أتريد رأيي ونصحي؟

زانيتو: أجل.

سيلفيا (بعد سكوت برهة تتكلم بتكلف عظيم وشدة): أطعني ولا تقصد هذه المرأة التي تدنست بالعار، وإنك لغر لا تعرف هذه الأمور، حدث سليم القلب ببسيطه، لا تدري بما يحفك من الضرر والسوء.

ولو أنني لما لم أستطع أن أوويك وأواسيك؛ كنت والأسف ملء فؤادي أول رافضة لبغيتك، ولكنني قادرة أن أنجيك الآن مما سيحقيق بك من المكروه لو أنقذت لرأيك. وكيف وأنت ابن الغاب الذي يسير فرحاً مرحاً تداعب الصدى،^{٢١} وتعدو وراء الطير، ويظلك الغمام، ويرويك الينبوع بزلاله البارد.

أنت الذي تيمتك الطبيعة بمحاسنها؛ حتى خلا قلبك من كل شيء تصنعه يد الإنسان، وتغني متلهلاً كالطير في سمائه، وأنت مبلى الخدين بالندى تود أن تلج هذه الدار المشئومة المحترقة.

أتدخل مع شمس الصباح بهواً^{٢٢} لم تكذ تنتهي فيه وليمة الخلان؛ لتدنس شفقتك النقيتين بكأس ابتذلتها الرفاق والإخوان، وتأكل فضلتهم الفاضحة الممقوتة. أتود أن تقع في مهاوي الفسق بالنظر إلى عينيها اللتين أذبلهما السهر وذهب بطلاوتهما العهر؟! فاتق الله في عينيك المزريتين بصفاء السماء وشعرك البهي العسجدي. أتطمع أن تنال من سيلفيا طعاماً ومأوى بأنشودة أو لحن؟ فغفوا أيها البريء الطاهر الذيل، فإني أخطبك بلهجة حادة قاسية مع أنني في حاجة إلى العفو والإغضاء، وتراني الآن مضطربة، ولكن ذلك من فرط حبي لك، كطفل تريد أن تنتشله أمه من مخالب الهلاك.

فابق على حالك من جوب البلاد، راتعاً في المروج النضرة الزاهرة والرياض الأريضة المونقة، يصدح فيها مزهرك كتول^{٢٣} من النحل، وإن اكفهرت السماء فما عليك إلا أن تذهب إلى صاحب القصر الهرم أو القروي ريثما يروق الجو، ثم تتمم ترحالك، وإن صادفك في طريقك في يوم باسم الصباح صافي السماء، فتاة حقيرة ضربت من الملاحاة والطهارة بسهم وافر، وتليق لأن تكون لك عروساً فعندها تلقى عصا الترحال، وتحط

^{٢١} رجوع الصوت في بعض الأماكن.

^{٢٢} القاعة الفسيحة المعروفة بـ «الصالون».

^{٢٣} السرب من النحل.

الرحال، وتعيش معها مطمئناً خالي البال، والحصاد مهنتك؛ فهناك ترى السعادة التامة والهناء العميم، والنعيم المقيم.

زانيتو: إنني لك مطيع، ولكن ربما كانت هذه المرأة براءً مما ألصقته بها الألسنة الحداد، ومن أخبرني بنبتها قال لي: إن قصرها يكاد أن يكون هادئاً مطمئناً، وإنني أعاهدك أن لا أيممها ما دمت تعلمين طلعتها^{٢٤}...

(يلمح من سيلفيا إشارة تألم).

عفوًا فقد مسستُ منك جرحًا داميًا على ما أظن، أما قلت لي منذ هنيهة: إنك تقضين الحداد، وذاك لا يكون إلا لفقد حبيب عزيز أو أخ أو خطيب؟ وربما كان ذهب ضحية سيلفيا هذه.

ألم يكن ما جاش بخاطري قريباً من الحقيقة؟! فكوني طيبة القلب، وعفوًا إذا تصورت أنك تتسرب إليك عقارب الغيرة، ظانة أنني أرمي إلى زواجها.

سيلفيا (وقد أكفهر وجهها): لقد غرك يا صديقي الشك؛ فإني لا آسف على أخٍ ولا حبيب، ولكنه طبيعي رحمة وشفقة على سيلفيا، عالمة أنها في الحقيقة أهل الآن لكرم يحمي براءتها، ولكن واهًا لغرض قاسٍ من مسير على الثلوج لا تستطيعه الأقدام! وهي في الباطن تكره الرشييق القوام الطاهر الذيل، فارحل واعلم أن جل نصحي لك أن لا تعرج عليها فهيّا اذهب بسلام.

(ثم تسمع بلهجة الألم).

إنك لا تعلم حرج الموقف، وما يشق عليّ من أمرك، وأجري عظيم إن ضللت خطواتك عن هذا الطريق، وإنني لأستحق على هذا البر الجليل أكثر من الشكر والثناء الجزيل.

(على حدة).

قد قضَي الأمر، ولكن وا أسفاه أن وقُفَ على حقيقة أمري.

^{٢٤} خبرها.

زانيتو: إنني لا أعرج عليها إذا كنت حكمت عليها بحكمك هذا، وسأرحل ولو أنني لا أجد اليوم إلا قليلاً من السعادة عما سبق لي من الحياة المشحونة بالوقائع، التي صادفت فيها كل الابتهاج والبشر، وتصعب الراحة والمقام لمثلي؛ لأنني لمع لي بارق أمل ضئيل من السعادة.

وحينما رفضت ما عرضته عليك شممت من لهجتك حنوًا ورقة، يخالطهما تأثراً استنبطت منه أنك تكتمين شجونًا عظيمة دليلها القاطع لفظة التأسف الحلوة.

سيلفيا (تناوله خاتماً): لقد صدق ظنك! فخذ هذا الخاتم تذكّاراً.

زانيتو (بإشارة رفض): لا يا سيدتي، وإنه لعلّ طراز قديم من ذهب جيد ومزين بفص كبير من الماس النادر، وهذا ما لا أستطيع قبوله فشكراً لك، وكيف أقبله وأنت أرملة فقيرة.

سيلفيا (على حدة): ليت شعري هل عرف جليّ حالي، وعلم من أين جاءتني هذه الحلي المشنومة؟ أراه التزم الصمت وينظر إلّى نظرة تغصّ مني الطرف حياءً وخزيًا.

(بصوت عال).

ماذا تود أن أن أعطيكه؟

زانيتو: أشتهي تذكّاراً لا عطاءً وإحساناً، شيئاً لا يقوّم بقيمة ولكنه عزيز عندك، أبغي هذه الزهرة الذابلة التي كادت أن تجف في شعرك الفاحم.

سيلفيا (تعطيه الزهرة): وا أسفاه! فخذها، وقبل طلوع النهار ستذبل هذه الوردة في يدك، وأملّي أن تذكرك عهدي بأن تنساني عندما تذبل، وإني أودعك الآن أيها العزيز.

زانيتو (يقترّب من سيلفيا وهي تبتعد عنه): سيدتي! لي كلمة أقولها والاضطراب يلعثم لساني، وأخاف أن آخذ طريقي الأبدي، وكما يخيل إليّ أنني ضللت طريق السعادة، ولا مسلك هنا يوصل إليها؛ فعليك اختيار أحب الطرق لأسير فيه، فأمعني الفكرة والبصيرة، وسأستقبل الجهة التي تشيرين إليها متكلاً على الله وحسن حظي.

سيلفيا (وقد صعدت إلى وسط سفح البيت، مشيرة إلى الجهة المقابلة للمدينة): اذهب إلى ناحية الفجر.

(ثم يخطو إلى سيلفيا بعض خطوات ولكنها توقفه بإشارة منها فيذهب يائساً.)

فرنسوا كوبيه

سيلفيا (وهي وحدها، تمكث آونة متكئة على مرفقها ناظرة إلى زانيتو وهو يبتعد،
ثم تغطي وجهها وتبكي بكاءً مرّاً): بارك الله في الحب، فأني الآن أستطيع البكاء.

إيدمون رويستان^١

بدر بزغ في سماء الشعر وفن الروايات التمثيلية، وُلِدَ بمرسيليا سنة ١٨٦٨، وقد ابتدأ في عالم التأليف بمجموعة في النظم سماها «اللهو بالترهات والسفاسف» جُمِعَتْ بين البلاغة والرقّة، ثم ظهرت أول رواياته التمثيلية «المولعون بسير أبطال القصص» سنة ١٨٩٤، وهي نظمية ذات ثلاثة فصول حوت: روح «ماريفو Marivaux»^٢ وأسلوب «بانفيل Banville»^٣ ثم اتبعها برواية «الأميرة البعيدة» سنة ١٨٩٥، وهي طلية النظم منسجمة العبارة، استخرجها من سيرة من القرون الوسطى، وبعدها بسنتين مُثِّلَتْ رواية «السامرية»، وهي مستنبطة من الإنجيل بديعة القريض رقيقة العبارة. وأهم مؤلفاته رواية «سيرانودو بيرجيراك» سنة ١٨٩٧، وهي شعرية حماسية ذات خمسة فصول، اهتمت لها أعطاف البلاغة طربًا، وسارت بذكرها الركبان. أوجد فيها مشربًا في الشعر مضادًا لمذهب المحققين الفاضحين، الذين يكشفون جميع ما استتر بلهجة تهكم قارصة، وهي في النظم بيت القصيد من شعر المؤلف، تضمُّ بين سطورها حماسة وحمية وشجاعة ومروءة منسجمة القوافي شائقة المعاني.

^١ Edmond Rostand

^٢ كاتب روائي مشهور بسيط الإنشاء سلسه، رقيق العواطف، وُلِدَ سنة ١٦٨٨ ومات سنة ١٧٦٣.

^٣ نابغة من شعراء المذهب المطلق مشهور بمتانة قريضه، وبلاغة شعره، وُلِدَ سنة ١٨٢٣، وتوفي سنة ١٨٩١.

وفي سنة ١٩٠٠ كتب رواية «الهيثم»^٤ وبطلها «الدوق دوريشتاد»؛ أي نابليون الثاني، وقد صادفت إقبالاً عظيماً وتحلت بمحاسن السابقة. وقد انتُخبَ المترجم في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٩٠٢، وأصبح أمير الشعراء، وله عدة قصائد نشرت على حدة وكان لها استحسان عظيم. وفي سنة ١٨٩٠، ظهر ديوان في الشعر لإحدى الأنسات، وهي في ربيعها التاسع عشر، باسم «المزامير»، بديع النظم رائق المعاني، لا يشوبه التكلف؛ فدهش المجمع العلمي حينما قارن بين عمر الفتاة وديوانها العظيم، ومنحها جائزة عظيمة، فتزوجها شاعرنا هذا في السنة التي ظهر فيها ديوانها، وهي السيدة «روزموند أيتيينيت جيرار» من الشعراء المشهورين، ولدت بباريس سنة ١٨٧١، وهي ابنة «الكولونيل كونت جيرار»، وحفيدة الماريشال «جيرار».

(١) ملخص رواية سيرانو

رواية حماسية ذات خمسة فصول، بدئاً بتمثيلها بباريس في ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٩ بمرسح «بورت سان مارتين»؛ فحازت إقبالاً باهرًا، وكانت مجداً وفخراً للشاعر؛ لما انطوت عليه سطورها من: الفكاهات، والهزل الرقيق، والأسلوب الأدبي الطلي، ومئاته القريض، والحماسة الشائقة، والمعاني الرائقة، والروح الفرنسية الصريحة. وهاك الموضوع:

تتبع سيرانو دوبر جيراك — وهو من مشاهير شعراء القرن السابع القرن السابع عشر — إلى «نزل البورجوني»، وهناك احتشدت الجموع من: سكارى، وسراة، وممثلين، وموسيقيين، وغيرهم. ثم نخرج على طاهي الشواء وأصناف الحلوى «راجنو»، وكان شاعرًا يضحك من رآه؛ إذ كان يملأ أكياس الورق الذي يلف فيه الحلوى بقصائده، وعندما يأتي مشتر يقف أمامه زمناً طويلاً، ريثما يقرأ الطاهي قصائده المكتوبة على الأكياس، وينتقي واحدة منها؛ إذ كان يرضن بها وتذهب نفسه حشرات عليها.

وهناك يدري سيرانو أن «روكسان» التي تيمّه هواها تميل إلى «كريستيان دونوفيت»؛ فيصطحب مع هذا المنافس المزاحم، ويدعوه ليسمع مع الجميع

^٤ النسرة الصغير.

القصيدة المضحكة التي يصف بها أنفه الكبير؛ فيغرق الجميع في الضحك من هذه القصيدة، التي حوت من الملح والفكاهات أرقها ويزينها الإلقاء البديع والفصاحة التي منحها هذا الشاعر.

وصار سيرانو يساعد كريستيان في استمالة روكسان بأن يمليه الرسائل البليغة لحبيبته؛ حتى اغترت به وظنته أنه هو المحرر لها وازداد حبها له بفضلها.

ثم تنتقل بالقارئ إلى بيت روكسان، فنرى كريستيان واقفاً بعد الغروب تحت طنف البيت، وقد علت الكآبة وأكمدته الأسف، فينظره سيرانو وهو مارٌّ فيستغيث به كريستيان لينتشله من ورطته؛ لأنه كان عيًّا فظًّا، وقد أردت روكسان أن يجالسها للسمر، فكان لا يعرف أن يخاطبها بكلمة غير قوله: «أحبك»، وصار يكررها حتى سئمت منه، وقالت له: حدثني عن الحب، وكيف يكون؟ فلم يحر جوابًا، فقالت له: عبر عن وجدانك وشعورك على الأقل. فما كان منه إلا أن لبث أمامها كالبهيمة، لا يدري غير قوله: «أحبك». حتى ضايقها وطرده.

ثم رق له سيرانو ووعدته بالمساعدة، واختبأ تحت الشرفة، وأشار عليه بأن يناديها، فأطلت من نافذة الطنف، وصار يلقنه سيرانو الجواب بعبارة بليغة وإشارات دقيقة؛ حتى أدهشها بفصاحته ومنحته القبلية التي طلبها منها في عرض كلامه، حينما رآها رضيت عنه بعد نفورها وغضبها، ثم تزوجت به بعد مدة قصيرة.

ثم سافر سيرانو هو وكريستيان إلى معسكر «إخوان الجاسكونيين» ضمن الجند الذين سافروا، وتبع روكسان زوجها، وهناك قُتل كريستيان برصاصة من الأعداء، ودُفن معه سر الغش والخداع الذي رتبته سيرانو، ولعب دوره برشاقتة المعهودة، وبعد موت كريستيان لبست روكسان ثوب الحداد ودخلت الدير.

وبعد أربعة عشرة سنة التقت بسيرانو، وصار يتردد عليها في بعض الأوقات، ويقص عليها سيرته الماضية وأخباره سنة بسنة، وحبها لها ما فتئ يجري في عروقه مع دمه؛ إلى أن أتى يومًا من الأيام وقد اغتاله أحد الخدم، وضربه بالسيف على أم رأسه، فضمّد جرحه وذهب إلى روكسان لينظرها

النظرة الأخيرة قبل موته، واعترف لها استدراجيًا بحبه، وأنه هو الذي لعب هذا الدور الختال، وقلب روكسان، وأنه ما برح كاتمًا حبه؛ فتأثرت روكسان ورقت له ورثت لما قاساه هذه الأعوام الطوال بسببها، وبكت وكان بודהا لو يعيش وتقاسمه هذا الحب العذري والوفاء والإخلاص، ثم قبلته في جبينه، وهو يعترف لها بآخر كلمة إلى أن أسلم الروح بين يديها.

(١-١) سيرانود ويرجيراك Cyrano de Bergerac

° Scène du Balcon منظر الطنف

روكسان: بخ بخ أهذا أنت؟ قد خيم الظلام، فانتظر إذ ابتعد الجمع والهواء لطيف والطريق قفر، فلنجلس لنتجاذب أطراف الحديث، وهات ما عندك فإني مصغية.
كريستيان (يجلس بجانبها على المقعد وبعد سكوت برهة يقول): أحبك.
روكسان (تقفل عينها): نعم فحدثني عن الحب.
كريستيان: أحبك.
روكسان: هذا هو الموضوع فانسج القول.
كريستيان: أنا ...
روكسان: صُغ القول.
كريستيان: أحبك كثيرًا ...
روكسان: بلا شك. ثم ماذا؟
كريستيان: ثم ... إنني أكون مبهتجًا إذا أحببتني! أجيبي يا روكسان إذا كنت تحبيني.
روكسان (عابسة الوجه): إنك تقدم لي الحساء^٦ بينما أشتهي الزبدة! فخبرني ببعض كليمات كيف تحبني.

^٥ البلكون.

^٦ «الشربة».

كريستيان: ولكن ... كثيرًا.

روكسان: أواه! ... صرّح بوجودك وشعورك!

كريستيان (وهو مقترب منها وناظر لعنقها الوضاء بعين ملؤها الشره والنهم):

بودي لو أَلِثم جيدك! ...

روكسان: يا كريستيان!

كريستيان: أحبك.

روكسان (وقد همّت أن تقوم): رجعت إلى النعمة الأولى.

كريستيان (وقد أمسك بها): لا! فأني لا أحبك!

روكسان: إن هذا لمن حسن الحظ!

كريستيان: أحبك حبًّا شغف فؤادي.

روكسان (وقد همت واقفة وابتعدت عنه): أواه!

كريستيان: نعم ... فقد صرت أحمق!

روكسان (بخشونة): هذا لما تعافه نفسي، كما أنك تزداد قبحًا في عيني من وقت

لآخر.

كريستيان: ولكن ...

روكسان: هيا اجمع فصاحتك الهاربة المشتتة.

كريستيان: أنا ...

روكسان: أعرف جيدًا أنك تحبني، فأستودعك الله.

كريستيان: لا تتسرعي فسأقول لك ...

روكسان (تدفع الباب لتدخل): بأنك تحبني ... نعم وأعلم ذلك. لا لا! فاذهب

بسلام.

كريستيان: ولكنني ...

(ثم تقفل في وجهه الباب.)

سيرانو (وقد دخل منذ هنيهة دون أن يُرى): هذا فوز باهر!

كريستيان: أغثني.

سيرانو: لا يا سيدي.

كريستيان: إنني أموت إذا لم أحظ منها الساعة بالقبول والرضا.

سيرانو: وكيف أستطيع أيها الأحمق؟! إذ ليس في الإمكان حتى إرشادك الآن.

كريستيان (وهو ممسك ذراع سيرانو): هاك انظر! (يرى نافذة الشرفة مُضاءة غرفتھا).

سيرانو (وهو مضطرب): نافذتها!

كريستيان (صائحا): سأموت!

سيرانو: خَفَضَ صوتك.

كريستيان (بصوت خافت): الموت.

سيرانو: أرى الظلام حالكا ...

كريستيان: وما العمل؟

سيرانو: الأمر متدارك ولكنك لست أهلا له ... فقف أيها التعس أمام الطنف، وإني سأختبئ تحته، وألقنك ما ستخاطبها به من الكلمات.

كريستيان: ولكن ...

سيرانو: اصمت.

الحاجبان (وقد ظهرا من بعيد يشيران إلى سيرانو): من ذا؟!

سيرانو: صه! (ثم أشار إليهما بخفض صوتهما).

الحاجب الأول (بصوت منخفض): نحن آتيان من مونفلوري، إذ كنا نترنم تحت

نوافذ الحسان على نغم العيدان.

سيرانو (مسرعا في كلامه): هيا اكُمنا في جوانب الطريق وإن مرَّ أحد مضايق

فاضربا لنا لحنا!

الحاجب الثاني: أي لحن أيها السيد الجاصندي؟^٧

^٧ نسبة إلى مذهب الفيلسوف جاصندي.

سيرانو: لحن مطرب إن مرّت امرأة. ومحزن إن مرّ رجل!

(يفترق الحاجبان وينزوي كل منهما في ركن من أركان الطريق، ثم يوجه خطابه إلى كريستيان.)

ادْعُهَا!

كريستيان: روکسان!

سيرانو (وهو يلتقط الحصى ليرمي به ألواح زجاج النافذة): انتظر ريثما نجمع بعض الحصى.

روکسان (وهي تفتح نافذتها): مَنْ يناديني!

كريستيان: أنا.

روکسان: وما أنا؟

كريستيان: كريستيان.

روکسان (باحقار): أهذا أنت؟

كريستيان: أريد أن أخاطبك.

سيرانو (وهو تحت الشرفة مشيراً إلى كريستيان): حسناً فتكلم بصوت خافت.

روکسان: إنك لا تفصح الكلام فاهب بسلام.

كريستيان: عفواً ...

روکسان: لا! فإنك لا تحبني أبداً.

كريستيان (يُلْقِنه سيرانو الجواب): ياالله! تتهمني بادعاء الحب بينا حبي في ازدياد

واشتعال.

روکسان (وكانت عازمة أن تقفل النافذة فتوقفت): عجباً! فإن هذا أفصح من ذي

قبل.

كريستيان (مُلَقَّناً): الحب يشب في قلبي متأرجحاً في مهد روعي الحائرة، فما أقسى

هذا الطفل الذي اتخذ روعي مهدياً له!

روکسان (وقد تقدمت إلى حافة الطنف): هذا من الحسن بمكان! ولكنك أحق

لكونك لم تخنق هذا الحب في مهده إذ وجدته قاسياً!

كريستيان (ملقناً): لقد سولت لي نفسي ذلك وهممت به، ولكن بغير طائل؛ فإن هذا الطفل يا سيدتي أشبه بهرقل^٨ صغير.

روكسان: ما أحسن هذا القول!

كريستيان (ملقناً): حتى إنه خنق ثعباني الكبرياء والشك بدون أدنى مبالاة.

روكسان: لا فُضَّ فوك! ولكن لم تسرعت في الاندفاع في القول دون استدراج؟ فهل أُصِبتَ في عقلك؟

سيرانو (وقد جرَّ كريستيان تحت الشرفة ووقف محله): صه! فقد أصبح الموقف حرجاً! ...

روكسان: أراك اليوم تتكلم متردداً في القول فما الذي عراك؟

سيرانو (متكلماً بصوت خافت مقلداً صوت كريستيان): قولي متردد؛ لأنه يتخبط في الغياهب باحثاً عن أذنك.

روكسان: ولكن كلماتي لم تتعثر في مخارجها كما تعثر كلماتك.

سيرانو: ستلقى هذه العثرات في القريب العاجل، وهذا يأتي بطبيعته، وإن فؤادي لواعٍ وحافظ لجميع قولك، وهذا مما يدل على عظم قلبي وصغر أذنك؛ إذ يلقف كلماتك أسرع من البرق، ولكن كلماتي يا سيدتي حينما تصعد إليك يلزمها وقت كافٍ.

روكسان: ولكني أجد أنها تصعد إليّ منذ هنية أطيّب من قبل.

سيرانو: قد تعودت من هذا التمرين!

روكسان: إنني أحدثك من علو شاهق!

سيرانو: صدقتِ وإنك لو رميتني من حالق^٩ بكلمة قاسية لقتلتني!

روكسان (وقد همت أن تنزل): أنزل إليك؟

سيرانو (بنشاط): لا!

روكسان (مشيرة إلى المقعد تحت الطنف): أسرع وتسلق المقعد.

^٨ أقوى الأبطال في «الميتولوجيا».

^٩ الجبل العالي.

سيرانو (وقد زاد اضطرابه): دعيني أنتهز ما تنفحني به الفرص من استطاعة التكلم بلطف دون مشاهدة.

روكسان: دون مشاهدة؟

سيرانو: نعم فإن هذا يجذب القلوب، وإنك ترين هذا الظلام المعتم وقد مد رواقه، وإني ألح بياض ثوب من ثياب الصيف، وما أنا إلا الظلمة وأنت الضياء! وإنك لا تدريين فضل هذه الدقائق عليّ أن انبعثت في بعض الأحيان من فمي الفصاحة والبيان ...
روكسان: لقد أسعدتك البلاغة بنفحاتها.

سيرانو: إلى الآن لم يصدر كلامي من فؤادي ...^{١٠}

روكسان: ولم؟

سيرانو: لأنني إنما أخاطبك وأنا بئ ...

روكسان: بين أي شيء؟

سيرانو: بين صواب مفقود وفكر ضال، إذ لا يثبت أحد أمام ناظريك! ...

ولكنني يخيل إليّ أنني سأخاطبك الآن للمرة الأولى!

روكسان: صدقت، فإنك تتكلم بصوت متغير.

سيرانو: نعم متغير لأنني في هذا الليل الأليل الساتر الذي يحميني أستطيع أن أكون أنا نفسي وأستطيع أن ... (ثم يتوقف وقد كاد أن يغمي عليه).

أين كنت؟ لا أعلم ... كل هذا، عفوًا عن اضطرابي؛ فقد ثملت من لذة هذا الموقف ... لأنه لي جديد غريب!

روكسان: جديد غريب؟

سيرانو (وقد أنهكه التأثر والاضطراب، وهو مجتهد في تدارك كلماته): نعم جديد غريب أن يكون صادقًا؛ فإن خوفي من أن يهزأ بي ويسخر مني^{١١} ليلدغني في سويداء قلبي ...

^{١٠} لأنه يتكلم عن لسان كريستيان، ولم يبتدئ بالتعبير عن وجدانه وحبّه.

^{١١} لأنه كان دميم الوجه كبير الأنف، ولم يظهر حبّه خوفًا من أن تهزأ به روكسان.

روكسان: ولم يهزأ بك؟ من عامل جاذب! ... نعم فقلبي يكتسي دائماً بعقلي، ونفسي تحدثني بأن أقتلع النجم من سمائه، ولكنني أتوقف لغرابة الأمر، وأستبدله بالزهرة.

روكسان: إن الزهرة جميلة.

سيرانو: فلنحتقرها الليلة.

روكسان: إنك لم تخاطبني قط بمثل ما أنسته فيك الليلة من الرقة والبيان!
سيرانو: آه! إن جرينا شوطاً آخر في الكلام فهناك الكنائس^{١٢} والشعل والسهام، والنجاة مقرونة بالأشياء الرطبة! ولنشرب نهلاً بدلاً من التعلل بكأس صغيرة من الذهب الإبريز من ماء «لينيون» العديم الطعم، وإن سَوَّلَ لنا النفس بأن ترى كيف تروى الروح إن شربت نهلاً وغبت من النهر العظيم.

روكسان: ولكن أين النكات الأدبية اللطيفة؟ ...

سيرانو: كان ما كان لأطيل مكثك معي، والآن إن تكلمنا كما ترومين؛ فكأننا نهين هذه الليلة، وهذا الطيب الزكي والساعة الهنيئة بل الطبيعة البديعة مثل: «فواتور Voiture» وقصائده الصغيرة الرقيقة.

ولندع السماء تجردنا من كل ما تتكلفه من القول بنظرة من دراريها، وإني لمشفق أن يكون في كيميائنا اللذيذة ما يُخشى عليه من تبخر العواطف، أو أن النفس تنفذ من ملاهيها التي تقتل بها وقتها بغير طائل، وأن لا يكون المكر العظيم غاية الغايات.

روكسان: ولكن أين النكات الأدبية؟ ...

سيرانو: إني لأمقت النكات في الحب، وإنه لمن الجرم في الهوى أن يستغرق فيه في المجالدة بالبيض الصفاح، وفضلاً عن ذلك فإنه يأتي في بعض الأحيان قسراً، ولا يغني منه حذر.

لهفي على الذين لم يدركوا هذه الأحياء القهرية! التي نشعر فيها بحبنا الشريف، الذي تشجينا منه كل كلمة رقيقة!

^{١٢} جمع كنانة، وهي: جُعبة السَّهام.

رويستان: وإن وافتنا هذه الأوقات فماذا تخاطبني به من الكلمات؟

سيرانو: كل ما يجيئني منها أرمي به إليك مكومًا دون تنضيده كباقة الزهر؛ فإني أهواك وأكاد أختنق من الحب، وقد شغفني هواك وجُننت منه، وليس في الجهد احتمال أكثر من هذا، واسمك في قلبي كأنه في جلجل، وإني لأرتعد حينما يهتز الجلجل فيرن داخله اسمك.

لم أنسَ ذكراك ومحب لكل بادرة منك، وأذكر أنني في العام الماضي في اليوم الثاني عشر من شهر أيار رأيته وأنت خارجة من البيت صباحًا، وقد غيرت ترتيب شعرك الذي كنت أستضيء بسناه الساطع مثلما يحرق الإنسان ببصره إلى الشمس، فإنه يرى هالة ذهبية على كل ما يقع طرفه عليه.

رويستان (بصوت مضطرب): نعم، فإن هذا من فرط الحب.

سيرانو: حقيقة فإن هذا الشعور الذي يغالبني لغيور مزعج، ولا مرية أنه ناشئ من الحب وبه كل أوصاف الحدة المحزنة، وفضلًا عن ذلك فإنه ليس معجبًا متكبرًا. ولو كان ينفعل أن أضم سعادتي وهنائتي إلى نصيبك منهما ليكون لك سهم وافر لفعلته؛ لأنني أسمع من بعيد ضحك ما تولد منهما مما ضحيته من حظي. كل نظرة من نظراتك تحدث فضيلة جديدة وتعودني الجرأة، فهل فهمت الآن وصرت على بينة من الأمر؟ أتشعرين بروحي وهي صاعدة إليك في هذا الديجور؟ وإني لأحار في وصف جمال ليلتنا هذه؟ وإني أقص عليك كل هذا الحديث وأنت مصغية إليّ، ولم يحم أمني القانع على أكثر من هذا، ولم يبق لي إلا أن أموت حيث بلغت غاية الغايات من الأمان والآمال!

وإن كلماتي لهي التي هزت منك الأعطاف بين هاتيك الغصون كورقة يحركها الهواء بين أوراق الخمائل، وقد شعرت بارتعادك وعلمت أنه وفق رغبتك إذ نمت أغصان الياسمين المتدلية بارتعاش يدك!

(ثم يقبل وهو تائه طرف غصن متدل من الياسمين.)

رويستان: نعم وإني لأرتعد كالريشة في مهب الريح وأبكى؛ إذ أحبك وأنا لك فقد ثملت من حديثك.

سيرانو: والآن فليأت الموت! وإني الذي عرفت كيف أحدث هذه النشوة ولا أطلب سواها إلا شيئاً واحداً ...

كريستيان (وهو تحت الشرفة): قُبلة!

روكسان (ترجع القهقري): ماذا تقول؟

سيرانو: أواه.

روكسان: إنك تطلب؟ ...

سيرانو: نعم أنا ...

(ثم يوجه خطابه إلى كريستيان بصوت خافت.)

لقد تسرعت وجريت لأبعد شأو.

كريستيان: يجب أن ننتهز فرصة اضطرابها وننتفع بها.

سيرانو (مخاطباً روكسان): نعم ... طلبت ... حقاً ... فيا لله! لقد عاودني صوابي،

وعلمت أنني زادت جرأتي.

روكسان (وقد انخدعت قليلاً): ألا تلح بعدها في طلب شيء آخر؟

سيرانو: نعم! ألح ... بل بغير إلحاح؛ فإنني أرى الهموم تغالب حيائك! وأخيراً لا

تمنحيني هذه القبلية!

كريستيان (وقد جر سيرانو من عباءته): ولم؟

سيرانو: صه يا كريستيان.

روكسان (وقد أطلت من الشرفة): ماذا تقول بصوت خافت؟

سيرانو: لأنني جريت شوطاً بعيداً، فزجرت نفسي قائلاً: صه يا كريستيان.

(يسمع صوت العيدان.)

مهلاً! ... فقد جاء مار.

(تقفل روكسان النافذة وينصت سيرانو إلى نغم المزاهر.)

(وقد ضرب أحد الحاجبين لنا مطرباً والآخر لنا محزناً.)

لحن مطرب ولحن محزن؟ ... فما قصدهما؟ هل أتى رجل أم امرأة؟ لا فهذا راهب.

(لنضرب صفحاً عن دخول هذا الراهب ومحدثه فليس فيها أقل أهمية.)

كريستيان: نل منها قبلة لي! ...

سيرانو: لا لا!

كريستيان: هل فات الوقت أو لم يحن؟

سيرانو: ستجيء هذه الآونة التي تنتشيان فيها من لثم الثغور لكونك ذا شارب ذهبي وهي ذات شفة وردية.

(ثم يخاطب نفسه.)

وددت لو كانت هذه القبلة لسبب ...

(ثم يسمعان صوت النافذة وهي تفتح، فيختبئ كريستيان تحت الشرفة.)

روكسان (وقد تقدمت إلى الطنف): أهذا أنت؟ كنا نتكلم عن ... عن ...

سيرانو: عن القبلة! وإنها لكلمة لطيفة لا أدري لم لا تستطيع شفتاك النطق بها، وإن أحرقتها فماذا يكون الأمر؟ فلا تزعجي نفسك لأجلها.

أما كنت تتركين بغير أن أشعر المزح، ثم تتسربين دون ارتباك إلى الابتسام متنقلة إلى التأوه ومنه إلى ذرف العبرات، فما عليك إلا أن تنتقلي. برشاقتك المعهودة من البكاء إلى القبلة فما يُخشى منها إلا ارتعاد خفيف!

روكسان: أطبق فاك أيها الأفاك.

سيرانو: القبلة ما القبلة؟ وما أدراك ما القبلة؟ قسم أو وعد أو اعتراف يحقق أو نقطة وردية توضع تحت باء كلمة الحب، بل سر مكتوم يلقفه الفم بدل السمع، أو لحظة جمعت فأوعت من الهناء ما لا يبلغه الوصف والحصر، لها دوي كدوي النحل، بل تناول طعمه معطر كالأزهار، بل إنها وسيلة يستنشق بها رائحة القلب، ويذاق بها من حافة الشفاه طعم الروح.

روكسان: مه!

سيرانو: إن القبلة لأشرف مما تتصورين يا سيدتي، ولقد منحتها ملكة فرنسا لأسعد لوردات الإنكليز.

روكسان: والنتيجة إذن!

سيرانو: عندي ما كان عند بوكنجام^{١٢} من خفي التباريح والآلام، وإنني أحب مثله الملكة وما هي إلا أنت وإن هو إلا أنا مبلبل البال أمين مثله.

روكسان: أضربت من الملاحه بسهم وافر مثله؟

سيرانو (على حدة): حقاً لقد نسيت أنني جميل!

روكسان: هيا اصعد لتقطف هذه الزهرة التي ما لها من نظير ...

سيرانو (دافعاً كريستيان نحو الشرفة): اصعد!

روكسان: نعم تذاق منها القلوب ...

سيرانو: اصعد.

كريستيان (متردداً): أرى إنها ليست ملائمة الآن!

روكسان: نعم لحظة جمعت فأوعت من الهناء ما لا يبلغه الوصف والحصر ...

سيرانو (وقد دفعه): اصعد أيها الحيوان الأعجم!

(كريستيان يصعد متسلقاً المقعد، ثم يمسك بالأغصان ومنها يخطو إلى الطنف.)

كريستيان: آه يا روكسان! ...

(ثم يعانقها ويقبل ثغرها.)

سيرانو: أواه! أية لدغة غريبة أصابت فؤادي أيتها القبله! بل يا مآدبة الحب التي أنا محيها، لقد تساقط عليّ في هذا الغيهب بعض من فتات هذه المآدبة، نعم يشعر قلبي أنه هو الذي حظي بهذه القبله؛ حيث إنه على هذه الشفة التي اغترت بها روكسان لتقبل الكلمات التي فهتُ بها منذ هنية.

^{١٢} أحد لوردات الإنكليز، وعاشق آن دوتريش ملكة فرنسا.

ألفونس دوديه^١

روائي فرنسي من النوابغ الذين يعدون على الأصابع، وُلد بمدينة نيم سنة ١٨٤٠، وتوفي بباريس سنة ١٨٩٧.

وبعدما لبث أستاذًا لكلية «أليه» مدة يسيرة رجع إلى باريس سنة ١٨٥٧، وفي السنة التالية نشر كتاب «العاشقات»، وهو مجموعة نظمية وإن كانت بها بعض مواضع ضعيفة لكنها من الرقة والسلاسة بمكان.

ومكث نحو عشرة أعوام محرر في الجرائد وللمراسح، وكتب «رسائل ثرثاري»^٢ سنة ١٨٦٦. وأهم قصصه ورواياته: «الشيء الصغير» سنة ١٨٦٨، «وتارتارين تاراسكون» سنة ١٨٧٢، و«قصص يوم الاثنين» سنة ١٨٧٣، و«فرومون الصغير وريزليه البكر» سنة ١٨٧٤، و«جاك» سنة ١٨٧٦، و«الناياب»^٣ سنة ١٨٧٧، و«الملوك في المنفى» سنة ١٨٧٩، و«نوماروميستان» سنة ١٨٨١، و«كُتَّاب الإنجيل» سنة ١٨٨٣، و«سافو» سنة ١٨٨٤، و«تارتارين جبال الألب» سنة ١٨٨٥، و«الخالد» سنة ١٨٨٨، و«مرفأ تاراسكون» سنة ١٨٩٨، و«دائرة وظيفة الكاهن الصغيرة» سنة ١٨٩٥، و«عائل الأسرة» سنة ١٨٩٠، و«تذكار كاتب»، و«ثلاثون سنة بباريس»، و«خلال حياتي ومؤلفاتي» سنة ١٨٨٨.

وكتب عدة روايات تمثيلية نخص بالذكر منها: «لارليزيين»، وهي المؤلف الرئيسي للمترجم، وقد طار صيته في عالم الأدب، وزاده جمالاً الموسيقيُّ الفرنسي الشهير

^١ Alphonse Daudet .

^٢ التراث هو: الكثير الكلام.

^٣ لقب هندي يمنح لمديري الأقاليم، ولضباط حاشية ملوك أسرة تيمورلنك.

«بيزيه Bizet» مؤلف «كرمين»؛ بأن وضع لها موسيقى شائقة شجية ترقص القلوب طرباً وترنح الأعطاف بنشوة نغمها.

ويُعدُّ كاتبنا هذا في مذهب المحققين حتى إن غالب قصصه تمثل الحقائق مرئية ومحسوسة بعين شاعر، ولو أنصفنا في وصفه لقلنا: إنه شديد التأثير في كتابته، وكان مقتدرًا في وصف الأشياء وصفًا صادقًا، عارفًا بالعوادات والأخلاق وعلم النفس، ومجيدًا في المعاني المبتكرة وفن التمثيل، ولم يظهر في عالم الروايات القصصية في عصرنا هذا مؤلف يفضل «سافو» و«كُتَّاب الإنجيل».

LaDernière Classe الأخير

هذا الموضوع وإن كان بسيط الإنشاء، لكنه يضم بين أسطره غيرة وحماسة على اللغة والتمسك بها والتفاني في صيانتها والعناية بها؛ إذ هي مفتاح سعادة الأمة وسلم ترتقي به إلى أوج المجد والفخر، وقد دعاني لكتابة هذا ما شاهدته من إهمال الناشئة للغتهم العربية، وبذل ما في وسعهم لإتقان الإنكليزية؛ حتى إن كثيرًا منهم وإن كانت درجاتهم في العربية أقل بكثير من الإنكليزية فإنما يعطونها بكرم حاتمي.

حدث صبي من الألزاس عن نفسه قائلاً: قمت متأخرًا صبيحة يوم إلى المدرسة، وقد أخذ الخوف مني كل مأخذ، وخشيت أن يعذّرني أستاذي بما يحمر منه الوجه خجلًا، ويغض الطرف حياءً وخزيًا؛ لأنه نبّه علينا بحفظ اسمي الفاعل والمفعول، اللذين لا أعرف منهما حرفًا واحدًا؛ فخالجتني الفكرة بأن لا أذهب إلى المدرسة، وأمرح في الحقول والرياض، وكان الوقت دافئًا والسماء راتقة، والشحارير تغرد على الغصون بما يُنسي الشجون، وكان الجند الجرمانيون يتمرّنون في مرج «ريبير» وراء معمل نشر الخشب، ولكنني غالبت نفسي ويممت المدرسة، وحينما مررت على دار العمدة لاحظت جمعًا عظيمًا مزدحمًا يقرأ إعلانات منشورة، ومنذ عامين وهذه الدار هي التي تنبئنا بأسوأ الأنباء من حروب خاسرة وأوامر جديدة مضايقة، فقلت: ترى ماذا جرى؟

ثم ذهبت عدوًا إلى قاعة الدرس، فرأيت أستاذنا المسيو هامل يمشي جيئة وروحة، ثم قال لي: اغنم مكانك فقد أوشكنا أن نبدأ الدرس دونك يا بني.

فهزولت إلى مقعدي، وقد انصرف عني بعض الروع، وشاهدت أستاذنا لابسًا حلته الرسمية، وكان لا يلبسها إلا في يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز أو عند قدوم أحد المفتشين.

ورأيت بعضًا من أهل القرية جالسين في قاعة الدرس؛ فذهب بي العجب كل مذهب، وشاهدت الجمع ساكنًا ساكنًا كأن على رؤوسهم الطير بوجوه حزينة مكفهرة، ثم صعد المسيو هامل على منبره، وقال بصوت حوى بين الحلاوة والشدّة:

أولادي! هذا درسكم الأخير الذي يجمعني وإياكم، فقد صدر الأمر من برلين بتعليم اللغة الجرمانية وإلغاء الفرنسية في الألزاس واللورين ... وسيقدم غدًا أستاذكم الجرمانى الجديد، وإذ كان هذا درسكم الأخير الفرنسى؛ فأرجو منكم أن تعيروني آذانًا صاغية وقلوبًا واعية.

فانقطعت نياط قلبي من هذه الضربة الفاجعة، وعلمت فحوى الإعلانات المعلقة بدار العمدة، فوا أسفاه على لغتي الفرنسية!

وأنا الذي لا أحسن الكتابة قد وقف بي الطالع المنحوس والجد العاشر إلى هذا الحد، وكنت منذ هنيهة أود أن أنقطع عن الدرس وأجوب الخلاء، وكتب اللغة التي كانت تضايقني ظهرت أمامي الآن كأعز صديق لا أقوى على مفارقتها، وكما أن المسيو هامل سيفارقنا من الغد ولا نراه بعد فقد نسيب عقابه وضربه.

لبس كسوته الرسمية احترامًا واحتفاءً بهذا الدرس الأخير، وكذلك حضر رجال القرية آسفين على أن لم ينتابوا المدرسة في أغلب الأحيان؛ وليقدموا واجب الشناء والشكر لهذا الأستاذ الجليل الذي ربّى أولادهم وصيرهم رجالًا منذ أربعين عامًا.

ثم جاء دوري وسألني في درسي، فياليتني كنت ذاكرته، وألقيت الآن أمام هذا المجمع اسمي الفاعل والمفعول بصوت جهوري واضح ولسان فصيح، دون لحن أو خطأ، ولكني تلعثم مني اللسان بعد الكلمات الأولى، وصرت واقفًا أهتز بقلب غليظ مطرق الرأس خجلًا متوقعًا زجر أستاذي إذ قال لي:

لا أعنفك ولا أزجرك يا بني، وإنك لتستحق العقاب، وهاك ما سيحقيق بك، تقصرون في حفظ دروسكم وتؤخرون عمل اليوم لغد؛ حتى ألت بكم هذه الفادحة وهي أعظم فاجعة داهمت الألزاس لتسويق قومه في عمل واجبهم. اليوم يحق لأعدائنا أن يقولوا لنا كيف تدعون أنكم فرنسيون وأنتم لا تحسنون قراءة لغتكم وكتابتها، ولكنك يا بني لست وحدك الملولم، بل نحن جميعنا.

إن أهلك لم يوجهوا جُلَّ عنايتهم لثقيفك، بل كانوا يفضلون أن ينتفعوا من ورائك ببعض دريهمات بأن تشغل في أحد المغازل أو تفلح الأرض، ويحق لي أن أرشق نفسي بسهام اللوم والتعنيف؛ لأنني كنت أعطك في بعض الأوقات لتروي حديقتي.

ثم انتقل أستاذنا إلى التحدث عن شأن اللغة، وأنها أفضل اللغات الأجنبية وأمتنها، ويجب علينا أن نعز عليها بالنواجز؛ لأن الأمة إذا نشبت فيها مخالب الاستعباد يكون أملها في الخلاص والسعادة بقدر تقدمها في لغتها وتمسكها بها. ثم طفق يلقي علينا الدرس ويشرحه، وقد رأيت أنني فهمت جميع ما سرده بسهولة لم أعدها، وأذكر أنني لم أضع مدة وجودي في المدرسة إلى الدرس كذاك اليوم ولم يصبني ملل، وكأن أستاذنا أراد قبل مبارحته لنا أن يلهمنا جميع معلوماته في درس واحد.

ولما انتهى الدرس ابتدأنا في الكتابة، وهياً لنا أستاذنا نموذجاً جميل الخط كتب عليه: فرنسا. ألزاس. فرنسا. وقد عمل منه جملة صور فرقها علينا. فكانت أمامنا أشبه بأعلام تخفق، نبّهت منا القلوب، وأثارت الشعور، وأهاجت العواطف، وهزت الأفتدة؛ حتى عم السكوت، فكنت لا أسمع إلا صرير الأقلام على الطروس.

وبينما نحن سكوت إذ حط على سقف المدرسة سرب من بنات الهديل، وأنشأ يغني فقلقت في نفسي: ليت شعري أيلزمون يوماً ما هذه الحمائم بأن تغني باللغة الألمانية أيضاً؟

كنت من وقت لآخر ألح خفية المسيو هامل، فكان جالساً لا يبدي حراكاً، كاسف البال، مردداً طرفه في بيته الصغير بالمدرسة، تعاوده الذكرى القديمة من تمضية أربعين سنة في هذا البيت، وأمامه قاعات الدروس، وبفناء داره شجر الجوز الذي زرعه صغيراً من هذا العهد؛ حتى شمش وملأ فضاء المدرسة، وبجانبه حشيشة الدينار وقد تسلّقت على الحائط وزيّنت النوافذ، ثم تسربت إلى العرش، وبينما هو على هذه الحالة من أسف لفراق معاهد شابت فيها نواصيه إذ نادته أخته ليساعدها في تجهيز الأمتعة والحقائب ليسافرا في الغد.

ولقد تشجع وأعطانا الدرس إلى نهاية الوقت، ثم دقت ساعة الكنيسة مؤذنة بالظهر، وأعقبتها موسيقى الجرامافون وهم قادمون من التمرين؛ فوقف أستاذنا وقد علاه الاصفرار وظهر بمظهر العظمة والهيبة قائلاً:

أيها الأحباب الأعزاء إني ...

ثم اختنق صوته من شدة انفعاله، ولم يقوَ على إتمام حديثه، فأخذ قطعة من الطباشير واتجه نحو اللوح الأسود وكتب بحروف متناهية في الكبر:

لتحيَ فرنسا!

ثم مكث في موضعه ورأسه مسند إلى الحائط، وقد كاد أن يُغشى عليه، ثم أشار إلينا بيده دون أن ينبس ببنت شفة بإشارة تؤذن بالانصراف.

تيوفيل جوتييه^١

من فحول النظم والنثر الفرنسيين، وُلِدَ بتارب سنة ١٨١١، وتُوفِّيَ بنويي سنة ١٨٧٢، دخل باريس في مقتبل عمره، فعالج أولاً فن التصوير، ثم انتقل إلى الشعر وقرض بعض قصائد حازت استحساناً عظيماً.

ولقد أُعْجِبَ به الكاتب الشهير في الانتقاد «سانت بوف Sainte Beuve» هو وفيكتور هوجو، ومن وقتئذٍ أوجد له مكاناً رفيعاً في عالم الأدب مدة الأربعين سنة التي مرت بعد ظهوره.

وقد حرَّرَ في جملة مجلات وجرائد، ووضع عدة كتب، وكان شاعراً وروائياً وكاتباً في الروايات التمثيلية مشهوراً، وعالمًا بالآثار والفنون الجميلة، مما شيد له مجداً حصيناً وفخراً رفيعاً، وكان له ابنتان إحداهما من مشاهير الكتاب، وهي «جوديت جوتييه» تزوجت بالشاعر العصري الشهير «كاتول منديس Catule Mendès»، وانفصلت منه سنة ١٨٦٩، ولها من المؤلفات ما يزيد عن العشرين كتاباً.

أما مؤلفات تيوفيل جوتييه فعديدة جداً ومتفرقة، وقد قُدِّرَتْ في ثلاثمائة مجلد، ونخص بالذكر منها الأهم.

^١ Théophile Gautier

ففي الشعر: «ألبيرتوس» سنة ١٨٣٣، و«رواية الموت» سنة ١٨٣٨، و«إسبانيا» سنة ١٨٤٥، و«الفصوص المنقوشة والميناء»^٢ سنة ١٨٥٢، وهو من روائع البلاغة متين القريض منسجم العبارة.

ومن أشهر رواياته: «ليجون فرانس» سنة ١٨٣٣، وفيها يضحك ويهزأ بعنفوان شباب المذهب المطلق، و«مدموازيل دموبين» سنة ١٨٣٥، وبها مقدمة مؤثرة، و«فورتونيو» سنة ١٨٣٨، وأخبار وقصص، لا سيما «الملك كاندول وأريا مارشيلًا»، و«رواية الجثة المحنطة» سنة ١٨٥٨، و«القبطان فراكاس» سنة ١٨٦٣، وهي شائقة مضحكة فريدة في بابها من أسلوب رواية «الرواية المضحكة»، التي وضعها «سكارون Scarron» الشاعر المشهور وصاحب الروايات الهزيلة.

ووضع في الانتقاد الأدبي: «من يهزأ بهم» سنة ١٨٣٣، وهو دفاع عن الشعراء الذين كادوا يسقطون من انتقاد «بوالو Boileau» مثل: «سانت أمان Saint-Amant»، و«سكارون» وغيرهما. وكان الفضل في إرجاع مكانة هؤلاء الشعراء وقدرهم وشهرتهم راجعاً لهذا الكتاب، و«تقرير على القريض الفرنسي» سنة ١٨٦٨، و«تاريخ المذهب المطلق» سنة ١٨٧٤، و«تاريخ فن وضع الروايات التمثيلية من ٢٥ سنة» سنة ١٨٥٨، وجملة محلقات روائية وتراجم خصوصاً للروائي الشهير «بلزاك Balzac» والشاعر الشهير «بودلير Bodelaire».

وأنشأ عدة كتب في الانتقاد الفني على معارض الصور والرحل في إسبانيا والروسيا وإيطاليا والأستانة وعدداً من الروايات التمثيلية النظمية الصغيرة وغيرها. وشاعرنا هذا وإن كان في بعض المواضع قليل الفكر والعواطف، لكنه متين الإنشاء رقيقه، ولقريضه شجو جديد، وقد أعاد شباب الشعر المبتكر، وكان كما وصفه «بودلير» شاعراً مجيداً خالياً من العيوب وعالمًا كاملاً أتى بالمدهشات في عالم الأدب.

^٢ جواهر الزجاج الذي يُصنع منه، وتطلق الآن على المادة الزجاجية الملونة التي تُوضع على الحلي حول الفصوص أو وحدها.

حذاء كورنيي Le Soulier de Corneille

هذه النكتة التاريخية وربما كانت فكاهة خرافية تمثل شاعر الفرنسييس مورنيي، وقد شاخ وافتقر، واقفاً أمام حانوت إسكاف حقير؛ ليخصف نعلًا لا يملك غيرها ودعاه الحال لينتظرها ريثما يصلحها الإسكاف.

في منعطف طريق بوسط باريس ازدحمت فيه السابلة، وعلت جلبتهم، كان شيخ ماشيًا الهوينا بقدم متثاقلة وشكل غريب، غارقًا في بحار تأملاته وخیاله، غائصًا في الوحول وهو غير شاعر، مرتدبًا بعباءة لم يبق بها مسكة، وكان نظره كنظر النسر، وفوداه^٢ أبيض من لجين، يمثل بكبريائه وخیلائه الصور القديمة التي ابتدعتها بنان المرة من المصورين، الذين لو رأوه لاختاروا وجهه نموذجًا للأوسمة النحاسية التي تمثل وجوه القدماء من المشاهير.

وكان يُخَيِّلُ للناظر أن كل ثنية من ثنيات خده الغائر تدل على فكرة، ويُقَرَأُ في عينيه السوداوين ضجر وملل.

أشرقت الشمس بعد احتجابها وصفت السماء، وكانت النواظر تغضي مهابة أمام عطارذ الذي يسمونه الدينار، وقد قضى «بالو»^٤ لياليه الثمينة في تمجيده، وأتى «منصار»^٥ بالعجب العجائب للحصول عليه.

ثم وقف كورنيي العظيم أمام حانوت صغير بمكان قذر حافي القدمين منتظرًا الإسكاف ريثما يخصف له نعله.

ولقد كان يمشي هوميروس^٦ في أرضه المباركة على الرمل الذهبي، عاري القدمين في طرق يونية، وهو بثوبه الأبيض الناصع كتمثال من المرمز صنعته يد «فيدياس» مصور التماثيل المشهور.

ولو أتى هوميروس باريس ومشي بخفه دون أن يخشى الفضيحة لألجأه يوم مطير لأن يرقع خفه، كما حصل لمؤلف «أوراس» و«سينا»، وهو الذي بفضل أسعدت إلهة

^٢ الشَّعْرُ الذي فوق الأصداع.

^٤ شاعر وكاتب منتقد فرنسي «١٦٢٦-١٧١١م».

^٥ مهندس فرنسي مشهور «١٥٩٨-١٦٦٦م».

^٦ أكبر شعراء اليونان، ومؤلف الإلياذة والأوديسة.

الشعر المصور الطائر الصيت «ميكيل إنج» بنفحاتها العظيمة؛ فأبدع في تصوير عظماء اليونان أيما إبداع.

لويس أيها الملك العظيم! إن هذا القصص الذي يعافه كل ذي ذوق سليم، أو بكلمة واحدة: هذا الحذاء المرقع لتجعل رقعته وصمات في ملكك بينما العشاق ترفل في الدمقس وفي الحرير.

وإني ليحزنني أن أرى كورنيي يعاني البؤس ألوانًا، وكيف هذا الحانوت القذر وعرشك الفخيم رفيع العماد، تزيينه أزهار الزئبق، ويختال في بردين من زخرف وبهاء، وطيلسانك من المخمل الأرجواني. فهلأ — رعاك الله — تعطفت بشيء على أمير شعراء عصرك وقد أناخت عليه الشيخوخة؛ حتى كاد يموت فقرًا في زوايا النسيان، ولقد خلّفت نقطة سوداء في صحائف تاريخك البيضاء، وكلّفا في وجه شمسك من تركك كورنيي بلا حذاء وموليير بغير قبر.

ولكن علامَ نغضب إذ ستتساوى الحظوظ ويجمعنا الموت سواءً، ويجر النسيان ذيله على الملك، ويطويه في خبر كان، ويبقى ذكر الشاعر حيًا خالدًا.

وقد حفظ قصر فرساي تماثيل الندماء، وذهب ما كان فيه من التملق، وغاض مأوه الذي كان يزينه بنوافيره المتنوعة العديدة بعدما كان مقر الملوك؛ فمن خلد بعد موته العظمة أم العقل الراجح؟ طلع الفجر على أحدهما وخيم الظلام على الآخر، وظهر طيف لويس في حديقة فرساي التي اختطها «لونوتر» الشهير هائمًا على وجهه يتخبط في ليل الليل، وخلد ذكر كورنيي كإله من آلهة القدماء، وما فتئ يرى وهو على منبره النيران والأضواء الموقدة احتفاءً بعيده وإعلاءً لشأنه.

وحينما يبلى تاج الملك الذهبي ويصير رمادًا، نرى غار^٧ الشاعر معمرًا^٨ ناميًا مخضرًا، بينا نرى الشاعر على مر الأعوام يعظم ويخلد ذكره، والملك يتضاءل حتى يُنسى.

^٧ الغار: شجرٌ معمرٌ معتدلُ القامة، كان القدماء يعملون من أطراف قمته تيجانًا للظافرين في الحروب.

^٨ المعمر في اصطلاح النباتيين: الذي يعيش من النبات دائمًا.

بيير كورنيي^١

نادرة زمانه وُغَرَّ دهره في الشعر، وُلِدَ بمدينة روان سنة ١٦٠٦، ومات بباريس سنة ١٦٨٤، وقد تلقى دروسه بمسقط رأسه بمدرسة اليسوعيين، ثم أتم دراسة الحقوق. وأول رواية تمثيلية ظهرت له «ميليت» سنة ١٦٢٩، وأعقبها برواية «كليتاندر»، و«الأرملة»، و«بهو القصر»، و«التابعة»، و«الميدان الملكي»، وقد اتصفت هذه الروايات بحسن التعبير وشريف العادات.

وفي سنة ١٦٣٣ قدم كورنيي إلى الكردينال «ريشليو»، وصار ضمن «الخمسة المؤلفين» الذين عهد إليهم الكردينال وضع الروايات التي رتب موضوعها بنفسه، ولكنه انفصل بعد مدة صغيرة لأنه لم يوافق مشربه.

وفي سنة ١٦٣٥ ظهرت روايته المحزنة «ميديه» ولو أن بها بعض عيوب، ولكنها تضم بين سطورها ما بثه خيال الشاعر وهو في عنفوان شبابه من القوة والحماسة والعظمة.

ولعلمه بفن وضع الروايات التمثيلية الإسبانية وضع تباعاً روايتي «الغرور المضحك» سنة ١٦٣٦، وفي السنة نفسها كتب رواية «السيد»، التي رتب له موضوعها الشاعر الإسباني «جيلهيم دوكاسترو»، وبهذه الرواية افتتحت الروايات المحزنة الفرنسية وأرخت بها، ودخلت في دور كمالها وتهذيبها، ولاتباعه لهذا الشاعر الأسباني صار نابغة في الشعر المقيد وأميره في عصره، وهذَّب ما كان في المؤلفات الإسبانية من الركاكة والضعف.

^١ Pierre Corneille

وقد قُوِّلَتْ «السيد» من الجمهور بحماسة وحمية خارقة للعادة، ولكن أغلب الشعراء وكتاب النقد في عصره تألبوا على انتقاده، ودونوا كتاباً سموه «النزاع في السيد» انتقدوا فيه على الشاعر؛ لأنه لم يدقق في مراعاة الأصول والقواعد، وإن الموضوع غير متين، ولكن ذلك الانتقاد الموهوم لم يؤثر على فخر الرواية ومجدها الرفيع، والذي حرص الشعراء والمنتقدين على الشاعر هو «ريشليو»؛ لأنه كان يحسده على هذا النجاح والفخر ويغار منه، ولم يقتنع هذا الرجل العظيم الداهية، الذي كاد أن يفترسه الطمع والنهم بالاستبداد بالسيطرة والهيمنة على فرنسا والخفض من الأسرة المالكة النمساوية، التي كانت منها ملكة فرنسا «آن دوتريش»، واضطراب جميع أوروبا أمامه من سياسته ودهائه، بل أراد أن يضم على هذه السعادة والسلطة والعظمة نظم الروايات؛ ليبث فيها ما يهوى من سياسته الجهنمية لتكون معيناً وممهّداً جديداً في التأثير على العقول وفق إرادته، فابتدأ يعالج نظم بعض روايات، ولكنه لم يفلح ورأى أن رواية «السيد» قد سحبت ذيل النسيان على جميع مؤلفات عصره؛ فالتهب قلبه حسداً وقام محارباً كورنيي بخيله ورجله إذ سلط عليه الشعراء والكتاب.

وقد ثبت هذا الانتقاد همة الشاعر مدة من الزمن، وضئ على المراسح برواياته نحو ثلاث سنين، ثم عاد إلى الكتابة ووضع عدة روايات مواضيعها منتظمة استنبطها من التاريخ الروماني.

فابتدأ برواية «أوراس»، و«سينا» سنة ١٦٤٠، و«بوليوكت»، و«موت بومبيه» سنة ١٦٤٣، و«رودوجون» سنة ١٦٤٦، و«إيراكليوس» سنة ١٦٤٧، و«الكذاب» سنة ١٦٤٣. وفي سنة ١٦٤٧ انتُجِبَ كورنيي في المجمع العلمي الفرنسي، وكتب من ذاك الحين: «إندروميد»، و«دون صانش داراجون»، و«نيكوميد» سنة ١٦٥١، و«سيرتوريوس» سنة ١٦٦٢، و«أوتون» سنة ١٦٦٤.

وقد أبعدته عن المراسح بضع سنين سقوط رواية «بيرتاريت»، ثم ترجم من اللاتينية شعراً كتاب «تقليد المسيح» سنة ١٦٥٦؛ وكان له إقبال عظيم ونجاح باهر. ثم عاد إلى دور التمثيل بعد أن تركها ست سنين، وظهر على المسرح ومعه رواية «أيديب» سنة ١٦٥٩ قائلاً:

إني لأحس بنفس الشعور والجرأة التي انتقدت «السيد» وحاربت «أوراس»،
ولكني أجد اليد عينها التي خطت روح «بومبيه» العظيم ودهاء «سينا».

امتاز شاعرنا هذا برنة الحزن المؤثرة في قريضه، ولو أن شعره في بعض المواضع به بعض إهمال ونقص في الطلاوة والبهجة، ولكنه رنان القافية وآية في: الحماسة، والحمية، وشهامة النفس، والإباء، وقوة الإرادة، وثبات العزيمة، والتفاني في حب الوطن؛ مما يدهش السامع ويأخذ بمجامع فؤاده ويحدث له نشوة طرب لا توصف.

(١) أوراس Horace: رواية محزنة «سنة ١٦٤٠»

الملخص

كان شيخ من رومية يُسمى «أوراس»، وله من البنين ثلاثة شبان وفتاة تسمى «كامي»، وكان في مدينة «ألب» التي كانت قديماً المدينة المنافسة لرومية، وقريبة منها شيخ آخر يقال له «كورياس» وله مثل أوراس ثلاثة فتيان وفتاة اسمها «سابين»، وكانت الفتاتان مخطوبتين كل منهما لشاب من هاتين الأسرتين.

ولما انتشبت الحرب بين رومية وألب، وكل منهما تتنازع الصولجان والسلطة، وطالت بينهما الوغى، أرادا أن يجعلاً حذاً لها ويحقنا الدماء، واتفقا أن ينتخب كل من الفريقين ثلاثة أبطال ينازلون بعضهم، والفريق الغالب تكون لمدينته حق السيادة على الأخرى.

فانتُخبَ عن مدينة رومية أولاد أوراس الثلاثة، وعن «ألب» أولاد كورياس؛ ف وقعت الأسرتان في حيص بيص، وتجاوزهما عاملان قويان: أيراعيان أواصر النسب وذمامه ويرفضان طلب الوطن وذاك محال، أم يشهران السيوف في وجه أصهارهم وذاك صعب الاحتمال، وأخيراً فضلاً تلبية نداء الوطن. وبينما النضال مستعر بين فتيان الأسرتين كان أوراس الكبير في منزله مع ابنته كامي وسابين ابنة كورياس ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة هذا القتال، إذ دخلت عليهم سيدة رومانية اسمها «جوليا» وهي خلية الفتاتين لتخبرهم بخبر المعركة.

[المنظر]

(أوراس الكبير - سابين - كامبي - جوليا)

أوراس الكبير: ما وراءك يا عصام؟ أجنّت يا جوليا مبشرة بالنصر والظفر؟
جوليا: كلا! بل بما حاق بهذه المعركة من الشؤم والنحس، إذ أصبحت منه رومية خاضعة لألب بعد هزيمة أولادك وقتلهم إذ لم يبق منهم غير الخاطب.

أوراس: يا لخطب عظيم ومصاب أليم وقتال مشؤم أصبحت منه رومية تابعة لألب، ولو جالد لآخر رمق لحماها وصانها. لا لا فذاك محال فقد خدعت يا جوليا؛ إذ لا يتأتى سقوط رومية إلا إذا كان ابني في بطون الرموس، فإني أعرف دمي حق المعرفة وهو يعلم ما يفرضه عليه الواجب.

جوليا: لقد رآه ألف مثلي من أبطالنا، وأدهش الجموع إقدامه وبسالته قبل موت أخويه، ولكنه لما لبث وحيداً أمام ثلاثة أقران عتاد، وقد أوشك أن يقع في قبضتهم، لم يجد بداً من الهروب لينجو بنفسه.

أوراس: ألم يجهز عليه ويخمد أنفاسه جندنا المخدوعون؟! أمهدوا له سبيل الفرار من بين صفوفهم؟

جوليا: إني لم أرد أن أنظر شيئاً بعد هذا الخذلان.

كامبي: وا حسرتاه على أخوي.

أوراس: كل ذلك عظيم مقبول فلا تبكي الجميع؛ لأن اثنين منهما تمتعا بحظ جميل يحسدهما عليه أبوهما. جلل الله لحدهما بأفخر الورود والأزهار، وقد استعضت عن فقدهما مجداً وسؤدداً، وسعادتتهما التي تبعتهما التي خانها الدهر إن رأوا مدى حياتهما رومية رافلة في حلل الحرية القشبية، ولم يشاهداها خاضعة لغير أميرها أو تابعة لمملكة بجوارها.

ابكي الآخر ونوحى على ما لحقنا من العار الذي لا يُمحي، اندبى فراره الفاضح الذي وصمت به جباهنا، وارثي للشنار الذي دنس أمتنا والفضيحة الدائمة التي التصقت باسم أوراس.

جوليا: ماذا تبتغي أن يعمل فرد ضد ثلاثة؟

أوراس: أبتغي أن يموت أو أن يعتره يأس جميل فيعضده ويغيثه، هلا أرجأ هزيمته آونة لينظر^٢ فيها استعباد رومية، ويحفظ وقار شيبى، وكانت هذه البرهة ثمناً عظيماً لحياته، وإنه لمدين لوطنه بدمه إذ كل قطرة يضمن بها منه تذهب بنضارة مجده. وما من لحظة تمر بعد هذا الدور الشائن إلا وتظهر خزيي وعاره للملأ كالشمس في رابعة النهار، وسأقطع هذه الصلة وأصب جام غضبي على ولد ليس للبنة أهلاً، وأريه حق الوالد وأقتص منه بأن أترأ منه على رعوس الأشهاد جزاء فعلته هذه.

سابين: أرعني سمعك وهون من غلواء حميتك وحماستك، ولا تجعلنا في غاية التعس وسوء الحظ.

أوراس: يسهل السلوان والعزاء على فؤادك يا «سابين»؛ فإن مصابنا لم يمكش بشيء يذكر ولم تشاطرنا في بؤسنا، وقد نجى الله بعلك وإخوتك، فإن أصبحنا خاضعين مستعبدين فلبلاك إذ ظفر إخوتك حينما خاننا نكد الطالع، وإنك ترين أرفع ذرى^٣ فخارهم ولا تنعمي النظر فيما لحقنا من الخزي، وهواك المبرح لهذا الحليل العرة سيجعلك في القريب العاجل تتنين منه مثلنا، وبكاؤك لأجله دفاع ضعيف، وأطلب من الآلهة العظام وقدرتهم السامية أن تغسل وتطهر عار الرومان بدمه.

ثم يدري أوراس من فالير بالخدعة الحربية التي رتبها ابنه، إذ لم يقصد بهربه إلا تفريق الكورياس الثلاثة، ثم تفرد بهم واحداً بعد الآخر وقتلهم جميعاً، ولا يُعاب بحيلته هذه فليس في استطاعة الفرد أن يكافح ثلاثة أقران.

ولما رجع ظافراً إلى دار أبيه كان أول من قابله أخته كامبي، وقد أيأسها وقطع آمالها موت حبيبها، ولم تخش بكاءه أمام أخيها، فتوسل إليها أن تفضل حب الوطن على هوى حبيبها؛ لأن الروماني مدين بحياته لوطنه، ولم يولد إلا ليحميه فأجابته بصب اللعنات على رومية.

^٢ يُؤخّر.

^٣ جمع ذروة، وهي: قمة الجبل، أو ما ارتفع من أعالي الأشياء.

^٤ الزوج الوغد.

لعنات كامبي

رومية وهي بيت القصيد في إثارة غضبي وحقدي! رومية التي لأجلها قتلت يدك الأثيمة حبيبي! رومية التي شهدت مولدك وعيها فؤادك! رومية التي أمقتها لأنها منحتك هذا المجد والشرف! سلط الجبار عليها جيرانها فتعاونوا على تقويض أساسها الذي كاد ينهار، وإن لم تكفها أمم إيطاليا فليتألب عليها أهل المشرقين، بل مائة أمة متحدة من أطراف العالم هي والبحار والأطواد تأتي لتخريبها، ولتنقض عليها أسوارها حتى تمزق بأيديها معالمها ومحاسنها، وأن تمطر عليها غضب القادر المستعر من دعواتي طوفاناً من نار متوقدة، وأتاح الله لي أن أشاهد الصواعق تهوي عليها وأرى بعيني دورها وقد استحالت رماداً وغارها^٥ وقد صار غباراً، وأشهد آخر روماني وهو يحتضر في النفس الأخير، وأكون أنا وحدي السبب في دمارها، ثم أموت من شدة وطأة السرور.

(ثم يعدو أوراس الصغير وراء أخته والسيوف بيده مسلول).

قد طفح الكيل ولم يبق في القوس منزع، والحق وحده الذي يفسح للصبر مجالاً؛
فهيا اذهبي إلى الجحيم لتأسفي هناك على حبيبك كورياس.

كامبي (وهي مجروحة وراء المسرح): آه يا لك من خائن غادر!
أوراس (وقد عاد إلى المسرح): هذا جزاء وفاق لكل مجترئ مهما بلغ شأنه تجاسر
أن يبكي عدواً رومانياً.

ما أعظم الحقيقة تتكلم باطن القلب دون أن تلغظ بقول

Que la Vérité parle au dedans du Coeur Sans aucun bruit de paroles

ناجني ناجني يا رباه! فعبدك مصغٍ لك، مقر بعبوديتي لأنني عبدك، وأود أن أكونه
وأسير على سننك ليل نهار، أفُض عليّ بروح منك لتعلمني ما تفرضه عليّ إرادتك العلية
القدسية، ووجد رغائبي في سمع فضائك الكريمة، ووجد بلاغتك الإلهية من ساطع
أنوارها وصبها داخل فؤادي بغاية السكون مخضلة بالندى البليل جزيلة لطيفة.

^٥ شجر الغار، وقد سَبَقَ شرحه.

تخشون بلاغة القادر يا بني إسرائيل، وتظنون أن الصواعق والموت تتبعها مدمرة كل شيء، وأنتم الذين لم توفقوا في الصحراء لاستماع كلامه العلي إذ قلتُم لموسى:

خاطب ربك والتمس منه أن لا يكلمنا؛ فإننا نخاف أن تعترينا غشية الموت من صوته الجهوري الرنان.

إنني بعيد عن هذا الفزع والرعب؛ فأتوسل إليك ربي إذ أتمنى غير ما تمنّاه بنو إسرائيل، وقد هرولت إليك والأمن ملء فؤادي لأتضرع إليك مع صموئيل^٦ بكل خشوع إذ يقول:

ولو أنك الفرد الذي أخشاه لكك الأحد العلي الذي آمل أن يسمعني: ناجني يا إلهي فعبدك منصت مطيع.

لست في حاجة لموسى ليهديني سبيلك أو لنبي غيره يفسر لي شريعتك؛ إذ أنت الذي تعلمهم وترسلهم ولا أطلب إلا صوتك العلي، وحيث إنك مصدر ما جاءوا به من الأنوار التي كان لها الفضل في إنارة ضمائرنا؛ ففي استطاعتك إن تمنحني إياها كاملة دون توسطهم فإنهم لولاك لما كانوا شيئاً يذكر.

إنهم يستطيعون أن يعيدوا كلامك، ولكنهم لا يقدرّون أن يلقوا روح معناه وتأثيره؛ إذ لولاك لكان حديثهم صرخة في واد يهزأ به ويسخر منه.

ومهما صاحوا وأتوا بالعجائب في حديثهم وصدعوا بأمرك بحمية وعزيمة قوية؛ فإنهم لولا كلامك لدخل قولهم من أذن وخرج من الأخرى دون أن يؤثر على القلوب أو يجد إليها سبيلاً، وإنهم يبذرون الكلم الغامض البسيط العاطل، ولكنك تنير البصائر في ظلام الجهالة الحالك، وتفيض من أعلى سمائك على رسالتهم المسئمة المملة روحاً تحييها وتجعل لها قوة وتأثيراً.

أفواههم تبلغ رسالتك كالمعمّيات والأسرار، ولكنك تعلمنا ما خفي من المعاني، ولولا نفحاتك الربانية وفيوضك العلوية لما فهمنا ما يلقونه إلينا من شرعك وسنتك. يدلوننا على الطريق، ولكنك أنت الذي تعطينا من القوة ما تستطيع به أقدامنا سلوكه لنهايته. وكل ما يجيئنا منهم لا يتجاوز إلا الظاهر، ولكن قدرتك تنفذ إلى أعماق كل شيء.

^٦ قاضي قضاة بني إسرائيل.

لولاك لما سقوا إلا ظاهر النفس، ولكنها تستمد خصبها من قوتك؛ إذ كل ما ينيرها ويحمسها لا يصدر إلا من قدرتك وإرادتك.

وقصارى القول: إن هؤلاء الأنبياء الذين ملئوا الأرض قولاً وصياًحاً إذا كانوا لا يؤثرون على عقولنا مما أفضت عليهم من نفحاتك القدسية لما عددناهم إلا في عداد الأصوات الصائحة.

صه إذن يا موسى! وتكلم بدله أيها الدائم الثابت. ناجني يا حق؛ لئلا أموت مدفوناً في ثلوج تجريدي من الفضائل، وإن تزد نعمك العميمة وأفضالك العظيمة رغبتني واشتياقي إلى مناجاتك فالموت خير لي.

وإن لم يؤثر الوعظ على القلوب ولم يمس إلا الظواهر كانت عاقبته وخيمة؛ لأنه يُسمع برغبة وقتية، ويعرف من غير أن يحب، ويؤخذ قضية مسلّمة دون مناقشة، وهذا مما يميم القلوب؛ ولذلك اقتضت حكمتك وعدالتك أن تعاقب الجاحد وتجازيه جزاءً وفقاً.

ناجني إذن يا رباه؛ فعبدك الأمين المخلص قد جمع حواسه وأيقظها لتنصت إلى مناجاتك؛ إذ تجد حلاوة الحياة الدائمة في لهجتك العلية.
ناجني لتعزي نفساً أضنتها الحيرة، ناجني لتقودها إلى ما يرفع شأنها، ناجني إذن فمجدك الرفيع ما زال نامياً سامياً.

قصيدة إلى المركيزة Stances à la Marquise

إن كان وجهي أيتها «المركيزة» جعده الكبر، فاعلمي أنك لا تفضلينني حينما تبلغين ما بلغت من العمر. ومن شيمة الأيام سرورها من إهانة^٧ الإنسان، وستعبت بورد خدودك كما جعدت جبھتي، وكذلك تكوّن الكواكب بمسيرها أيامنا وليالينا، وقد رأني الناس وأنا مثلك، وسوف تصيرين مثل حالتي الآن.

^٧ أي إهانته في قوته وجماله من تأثير الشيخوخة.

إنني الآن حائز لمحاسن ومفاخر^٨ شائقة ترد عني غائلة المخاوف والهموم من سطوات الدهر وحملاته،^٩ وأنت مزدانة بما يُحِب ويعشق،^{١٠} ولكن ما تحتقرينه مني يستطيع أن يستمر على الدوام، بينما يذهب بهاء ما عندك وتنقضي نضرته^{١١} ويقدر على نجاة فخر عينين تروقني ملاحظتهما وتخليد ذكر ما يعجبني منك آلاًفاً من السنين.^{١٢} وهذه الأمة التي تجلني لا تعتبرك من ربات الجمال إلا بقدر ما قلته فيك، وافتكري أيتها المركيزة الحسنة أنه ولو كانت النواظر تنفر من الشائب؛ فجدير به أن يلاطف ويستمال إذا كان مثلي.

يجب على الناس أن يساعد بعضهم بعضاً

Les hommes doivent s'entre-secourir

تألم وتوجع من عيوب الناس دون أن تنبس بسخط أو شكوى مهما أتاها من كبائر العيوب، واعلم أن كلامنا به منها ما يجعل الناس تئن منه. وإن كان ضعف عزيمة يضع أمامك من العقبات ما يحول دون أمانيك؛ فكيف تطلب هذه المعجزة من غيرك كما تريد وتهوى؟

أليس من الظلم البين أن تبتغي من غيرك أن يكون كاملاً بينما أنت مغموس في مساوئك، ولا تروم أن تطهر نفسك منها لتكون نموذجاً لغيرك؟! ولو كان الكل كاملاً لاستراح الناس ولم يلاقوا في الدنيا ما يتألمون منه ويحتملونه لوجه الله، ولم يجد هذا الصبر المشبع بالفضائل مسوغاً له، ولكن حكمة الحكيم اقتضت غير ذلك.

^٨ يقصد بمحاسنه هنا: فضله، وعلمه، وأدبه.

^٩ يُريد بها وطأة الهرم والضعف.

^{١٠} أي بالجمال والمحاسن.

^{١١} أي بعد انقضاء جمالها وزوال محاسنها يبقى ويستمر ما تحلّى به الشاعر من الفضل والعلم على الدوام.

^{١٢} يقول: إنَّ فضله وأدبه هذا قادر على تخليد محاسن هذه الجميلة، وذلك بأن نَظَمَ لها هذه القصيدة، فصارت النَّاس تذكرها بالجمال لغاية الآن إلى مدى الأزمان.

لم يُحرز أحد نهاية الكمال في الطيبة والجمال، وما برأنا^{١٣} الخالق ليعفينا من أن يحمل البعض عن الآخر أثقاله وأعباءه بدوره.
ما من أحد خالٍ من العيوب وضعف العزيمة، غير محتاج للمعونة، ويكفيه عقله وحده لأن يكون عاقلاً كيّساً أو عزيمة وحدها لأن يكون قادراً قوياً.
فالواجب علينا إذن أن نتحابَّ ويعلم بعضنا بعضاً، ونتعاضد في أعمالنا، ونتبادل اليقظة في سلوكنا ونتعاون في الاستشفاء من الأدواء.^{١٤}

^{١٣} خلقنا.

^{١٤} جمع داء.

جان راسين^١

نادرة من الشعراء المفلّحين الفرنسيين الذين مهروا في الشعر المحزن، وُلِدَ بمدينة «لافيرتيه ميلون» سنة ١٦٣٩، ومات بباريس سنة ١٦٩٩. مات أبوه وأمه وتركاه يتيمًا في الرابعة من عمره، وأُدْخِلَ في العاشرة مدرسة «بوفيه»، وفي السادسة عشرة أُلْحِقَ بمدرسة «بوررويال» لتتِمِّمَ دراسته، وكانت أساتذته فيها «نيكول» و«هامون» و«لانسيلو»، وقد صيّرَه هذا الأخير من نوابغ العارفين بأحوال قدماء اليونان وتاريخهم وآدابهم، ثم درس الفلسفة بكلية «أركور».

كان هو و«لافونتين La Fontaine»^٢ و«موليير Molière»^٣ و«بوالو Boileau» تربطهم عرى الوداد والصداقة، ففي سنة ١٦٦٤ مثَّلَ له «موليير» هو وجوقه روايته الأولى «لاتيبايد»، ثم أعقبها برواية «إسكندر الأكبر». وفي سنة ١٦٦٧ وهو في السابعة والعشرين ظهرت روايته الشهيرة «أندروماك»، وبها طارت شهرته وأثبتت اقتداره الفائق في فن وضع الروايات؛ ومن ذاك الحين

^١ Jean Racine.

^٢ الشاعر الفرنسي الشهير الذي نظم قصصه المشهورة عن لسان الحيوانات سنة «١٦٢١-١٦٩٥»، وهو أعظم شاعر في هذا النوع، وترجمت قصصه إلى أغلب اللغات، وعزَّيها الشاعر المجيد عثمان بك جلال وسمّاها: العيون اليواظ في الأمثال والمواعظ.

^٣ كاتب نابغة من الفرنسيين سنة «١٦٢٢-١٦٧٣»، وهو أعظم شاعر في الروايات المضحكة، وأوَّل من ابتدعها، ولم تظهر لغاية الآن رواية تُضارع رواياته حتى صار فريدًا لا يُجارِيه مُجارٍ، وكان مُمثلاً ماهراً، ورئيس جوق.

تتابعت مؤلفاته، وكلها آيات معجزات تعاقبت في ظرف عشر سنين وهي: «المحامون» سنة ١٦٦٨؛ رواية مليحة النكات، وست روايات محزنة، وهي: «بريتانيكوس» سنة ١٦٦٩، و«بيرينيس» سنة ١٦٧٠، و«باجازيت» سنة ١٦٧٢، و«ميتريدات» سنة ١٦٧٣، و«إيفيجيني» سنة ١٦٧٤، و«فيدر» سنة ١٦٧٧.

دخل في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٦٧٣، وكان من المقربين عند الملك لويس الرابع عشر؛ إذ جعله مستشاراً له ومؤرخاً.

وبعدما بلغ هذا المجد الرفيع اعتزل المراسح وهو في السابعة والثلاثين؛ من حملات الكتاب والشعراء الظالمة على رواية «فيدر»، ورموه بوساوس دينية بالنسبة لعواطفه ووجدانه في اعترافاته في هذه الرواية.

ثم تزوج بفتاة ساذجة تقيّة تُدعى «كاتيرين رومانيه»، وورّق منها بخمس بنات ترهبت منهن اثنتان، وولدين أحدهما «لوي راسين»، وكان من مشاهير الشعراء والكتاب لبث هاجراً المراسح اثني عشر عاماً، ثم ألحت عليه مدام «مانتينون» بأن يكتب روايتين لفتيات مدرسة «سان سير»، ويكون موضوعهما مستنبطاً من التوراة؛ فأجاب طلبها ووضع رواية «إيستير» سنة ١٦٨٩، و«أتالي» سنة ١٦٩٠، ومثلتهما بنات المدرسة السابقة؛ فحازت الأولى إقبالاً عظيماً، ولكن الثانية لم تصادف ما أحرزته الأولى، ولو أنها أبلغ ما خطه بنان الشاعر، والسبب راجع إلى التمثيل؛ لأن الفتيات لم يحسن تمثيلها وأطفئوا بلاغتها المتوقدة.

وكتب نثرًا «ملخص تاريخ بوررويال»، وجملة رسائل بليغة وقطعاً تاريخية، ويُشاع أن الملك لويس الرابع عشر غضب عليه في أواخر أيامه؛ فاغتم غمًا شديدًا أودى بحياته. إن قارئاً رواياته المحزنة بروايات كورنيي نجدها مطابقة مثلها القاعدة «الواحدة» المتبعة في الشعر المقيد، وهي تشتترط في ثلاثة أمور: «بساطة الموضوع»، و«حصوله في يوم واحد»، و«وقوعه في مكان واحد أو مدينة واحدة».

وتمائلها أيضًا بقلّة أشخاصها؛ إذ كان يهمهم أن يمثل موضوعاً أدبيًا يتجاذب قلب الأبطال تمثيلًا صادقًا يقرب من الحقيقة، وتفترق روايات راسين عن روايات كورنيي في خمسة أمور:

أولاً: أنها أقل حماسة وتأثيرًا، وأشخاصها القريبون من الحقيقة ضعاف العزيمة كأغلب الناس، وعواطفهم ليست دائماً شريفة ولا أعمالهم خارقة للعادة؛ فلذلك قال

«لا برويير La Bruyère»^٤ «كان كورنيي يمثل الناس كما يليق ويجدر بهم، وراسين يصورهم كما هم عليه.»

ثانيًا: مؤلفاته كلها ما عدا «إيستير» و«أتالي» مفعمة بالعواطف العادية العامة من حب يختلف بين: الرقة، والحياء، والشدة، والنحس، والجرم. ولكن كورنيي وضع الحب في صف ثانوي، وأتبعه بعواطف راقية شماء كالشرف وحب الوطن، وترى في روايات راسين أن النساء تحرز المكان الأرفع؛ فلذلك تحدث الناس بأبطال كورنيي الذكور وفرسان راسين الإناث.

ثالثًا: أنها لا تثير من النفوس حميتّها وحماسيّتها وإعجابها مثل كورنيي، ولكنها تحدث تأثيرًا مغايرًا كإيقاظ الشفقة في القلوب والهموم والمخاوف، وبث عواطف الحب، ولكن كورنيي ترثّم بشعور العظمة والإباء وعزة النفس.

رابعًا: أن كورنيي كان يمنح أشخاص مؤلفاته الذين استنبطهم من العصور القديمة مبادئ الشهامة والمروءة والتبجح بأعمالهم الجليلة، ولكن راسين كانت رواياته مرآة تنطبع فيها أحوال عصره وأخلاقهم وعواطفهم ومبادئهم الاجتماعية تحت حكم لويس الرابع عشر.

خامسًا: إنشاء راسين متين متساوي الأطراف شائق نقي شجي تلبسه جرأة متوارية.

(١) نبذة من رواية إيفيجيني Iphigénie

اِخْتَطَفَ «باريس» بن «بريام» — ملك طروادة — «هيلانة»، زوجة «منيلاس» — ملك إسبرطة — فاستشاط غضب اليونان، وأجمعوا على حصار طروادة وتخريبها، وحشدوا جيشًا عظيمًا، وجهزوا أسطولاً في ميناء «أوليس» بقيادة «أجاممنون» أخي «منيلاس» وأبي «إيفيجيني»، ولكن خانتهم الرياح ولم يستطع الأسطول أن يقلع؛ لأنه كان شرعياً فأصبح الكل يتلهب غيظاً لما طال المدى عليهم هم منتظرون بلا طائل، فاستشار أجاممنون الوحي بواسطة العراف «كلكاس»، فرد عليه قائلاً: إن الرياح لا تهب إلا إذا ضحت اليونان فتاة من دم يوناني قرباناً للآلهة، وظهر له أن هذه الفتاة هي إيفيجيني.

^٤ كاتب فرنسي مشهور في الأخلاق «١٦٤٥-١٦٩٦م».

وقد طلب أجاممنون ابنته في المعسكر ليحميها من الهلاك، مدعيًا أنه ما طلبها إلا ليزوجها أشيل أعظم أبطال جيشه، ولكنه وبخه ضميره فأرسل أركاس تابعه الأمين ليمنعها عن المجيء، وكان ذلك بعد فوات الوقت؛ إذ حضرت ابنته ووالدتها «كليتيمنيستر» والفتاة «إيريفيل» أسيرة أشيل، وكانت هذه الأخيرة هائمة بهذا البطل؛ فبذلت وسعها لتستحوذ على فؤاده وتنسيه إيفيجيني.

ورغمًا عما بذله أجاممنون من التكتّم، فقد أنبأ أركاس والدّة إيفيجيني بأمر الآلهة، وخضع أجاممنون لمشيئة الوحي، وجاء يطلب ابنته بنفسه ليقودها إلى كلّكاس. ولم سمع أشيل هذا الخبر أقسم بأن يدافع عن إيفيجيني، بينا تعاتب كليتيمنيستر زوجها على هذه الخيانة، وكان الملك في أول الأمر متكبرًا معجبًا غير متأثر، ولكنه رق أخيرًا وتعطف على الفتاة وأمها، وأشار عليهما بالهرب لينجوا من هذا المصاب الأليم، ولكن إيريفيل نمت بما تم من أمر الملك إلى اليونان، وبينما إيفيجيني ماشية بعزم قوي إلى المذبح إذ قال العراف كلّكاس: بأن إيريفيل من دم يوناني أيضًا، وهي التي تجب تضحيتها؛ فانتحرت الفتاة حينما سمعت هذا، ونجت إيفيجيني وهبت الرياح كما اشتهدت السفن، وسافر الأسطول واشتفت قلوب أبطاله بعدما يئسوا من الانتظار الممل.

[المنظر]

(أجاممنون - كليتيمنيستر - إيفيجيني - إيجين)^٥

كليتيمنيستر: تعالي بُنيّتي فإنهم لا ينتظرون غيرك؛ إذ أنت ضالتهم المنشودة. تعالي لتشكري أبًا يحبك ويود أن يقودك بنفسه إلى المذبح.^٦
أجاممنون: مالي أراك بنيّتي ساجدة العبرات غاضة أمامي الطرف؟ ما الذي أثار منك هذه الشجون وأبكاك أنت ووالدتك؟ لقد خانني التعس أركاس.

^٥ تابعة لكليتيمنيستر.

^٦ تقول ذلك بتهكم.

إيفيجيني: سَكُنْ من اضطرابك وكن هادئ البال يا أبت، فأمرَك مطاع عند أول إشارة، وما حياتي إلا من طولك ونعمتك وعارية تريد أن تستردها، ونحن مستمعون لإرادتك بعين قريرة وقلب خاضع، كما قبلت الزوج الذي وعدتني به، وتراني إذا لم يكن لنا مناص من الأمر ضحية مطيعة، تعرف أن تمد رأسًا بريئًا إلى سيف كلكاس محترمة هذه الضربة القاضية التي سمحت بها إرادتك لأرد إليك دمًا منحتنيته.

وإن كنت ترى أن هذا الاحترام والطاعة يستحقان أن يكافأ بجزء آخر، وإنك مشفق على آلام هذه الأم ورائف بها؛ فإنني أتجرأ أن أقول: إنه ربما صادفني من المجد والشرف ما أحاط بحياتي من كل صوب مما لا يجعلني أتمنى الموت ولا أبغي أن القضاء المبرم يصل طرفي حياتي ويقرب مولدي من مماتي.

أنا ابنة أجاممنون، وأول من ناداك بالوالد، بل بهذا الاسم الجميل، وأنا التي مضى عليّ ربح من الزمن وأنا قرة عينك، وإنك لهذا الاسم^٧ كنت تحمد الآلهة على نعمهم، ولأجله كنت تغمرني بملاطفاتك التي ما ألجأك إلى الإسراف فيها إلا موضع الضعف^٨ من الأبوة وحنانها، وللأسف كنت أسرد والسرور ملء فؤادي أسماء البلاد التي ستدوخها متفائلة بانتصارك على اليون،^٩ وكنت أعد معدات عيد هذا الظفر، وما كنت منتظرة أن يُفتتح بأن تهرق دمي ولا خوفي من هذه الضربة هو الذي يذكرني بطيبتك الماضية.

لا تخشَ أمرًا فإن قلبي ليغار على مجدك وشرفك، ولا يجترئ أن يقترب ما يحمر من أب مثلك الوجه خجلًا، ولو كنت لا أفكر إلا في الدفاع عن حياتي لكنت أستطيع أن أحفظ تذكيرًا جميلًا، ولكنك تعلم لسوء حظي وعثار جدي أن هناء أُمِّي وحبيبي مرتبط بي، وأن ملكًا يود لو يرى يومًا يشهر فيه زفافنا الفخم.

وثق حبيبي بقلبي الذي وُعدَّ بهواه، وقد عدَّ نفسه سعيدًا حينما وعدته بزواجي، فما قولك في خوفه وإشفاقه إذ يعلم قصدك، وترى والدتي أمامك تذرف وابل الدمع؛ فغفوا عما سولت لي به الآن نفسي لتدارك عبرات تسيل بسببي.

^٧ أي إنه كان يحمي الآلهة حينما كانت تُناديه يا أبت على أن منحوه ابنة، وصار لها أبا.

^٨ مواضع الضعف هي التي تُؤثر على الإنسان، وتتغلب عليه؛ كحنان الأبوة، ولو كان الأب قاسيًا مع جميع الناس.

^٩ اسم آخر لمدينة طروادة.

أجاممنون: لقد قلتَ حقًا يا بنيّتي، وليت شعري لأي جرم يطلب غضب الآلهة قربانًا لتكفيره، ودعاك باسمك هذا الوحي القاسي ليهدر دمك على المذبح، وما كان شغفي بك منتظرًا توسلاتك للذود عن حياتك، بل طالما قاومت هذا الأمر.

أتظنين أن هذا الحب الذي تعترفين به بنفسك، وفي هذه الليلة أُخبرتُ بأنّي أعلنتُ بطلان هذه الإرادة التي جعلوني أقبلها لفائدة اليونان التي سينالونها منك، وذهب أركاس ليمنعك عن المجيء ولات حين مناص؛ إذ لم تشأ الآلهة أن يصادفك، وخذعوا ما بذله أب تعس سيئ الحظ، يحميك بلا طائل ولا جدوى مما صبوه عليك من العقاب الأليم.

لا تعتمدى على قوتي الضعيفة في حمايتك والدفاع عنك؛ فلا أحد يستطيع أن يوقف حرية شعب عند حد إن أرادت الآلهة رفع نير الاستعباد عن عاتقه؟

فإذن يجب عليك بنيّتي أن تخضعي فقد أزفت ساعتك، وفكري جيدًا في أي مرتبة رببت ونشأت، وإني أعظك بهذه النصية التي لم أكد أتلّقها. واعلمي أن موتك أهون مما ساعانيه بعدك من الحشرات والآلام التي تهدُّ شوامخ الأطواد.

أظهرى عند موتك من أين أتيت، وأخجلي الآلهة الذين ظلموك بهذا العقاب الأليم، واذهبي ليعرف اليونان دمي وهو سائل منك حينما يضحونك.

كليتيمنيستر: إنك لم تكذبِ أسرة منحوسة مشئومة، ومن أشبه أباه فما ظلم، نعم إنك من دم «أترية»^{١٠} و«تبيست». ألم يرق لك يا جلال ابنته إلا أن تولم بها وليمة فظيعة لأمها وإنك أيها الوحش الضاري الذي دبر هذه الضحية بفنونك وحيك؟! ألم يمنعك قبح هذا العمل وفظاعته عن قبول هذه الإرادة البربرية القاسية؟!

عجبي منك كيف تتصنّع أمام أعيننا بهذا الحزن الكاذب؟ أتفكر أنك تخدعنا بهذه الدموع لتبرهن على حنانك وشفقتك؟! وأي حرب خضعت غمارها لأجل ابنتك أو دم أسلته لها؟ أم أي أثر هنا يدل على مقاومتك أو ميدان غطيته بأشلاء الموتى يلجمني ولا يدع لي وجهًا للكلام؟ وبأي شهود تثبت أن حبك لها سؤل لك نجاتها.

حكّم القضاء المبرم بقتلها، ولا أظن أن الوحي يؤخذ من ظاهر قوله، وهل الآلهة العدل يشفون أوار غليلهم بهذا الموت الشريف وهذا الدم البريء؟

^{١٠} والد أجاممنون، وتبيست أخوه، وقتل الأخ الأول أبناء أخيه وأطعمهم لأبيهم.

وإن كان بجرم هيلانة تُؤخذ أسرتك وتنشد «أيرميون»^{١١} والدتها في أرجاء إسبرطة، ويجعل منيلاس يسترد بثمان ناهيك به نصفه^{١٢} الأثيم الذي هام به وتيممه.

عجبي لك! فأني جنون أَلْجَأُ لأن تكون ضحية له، وأن تحمّلنا تبعة جرم أخيك، ولم أدعني أمزق جيوبي غمًا وأعطيته دمي النقي ثمنًا لحبه الأحمق؟

ماذا أقول في هذا الأمر الذي أثار غيرة الجميع، وتظن أن هيلانة التي عكرت صفو أوروبا وآسيا تستأهل أن تكون ثمنًا لحروبك العظيمة؟ كم من مرة حمرت وجوهنا خجلًا لأجلها قبل ارتباطها المشؤم بزواج أخيك؛ إذ اختطفها تيزيه^{١٣} من أبيها كما علمت، وأنباك به كلكاس، واثتلف بها سرًا وأولدها بنتًا أخفتها عن اليونان وكانت برهانًا ساطعًا لإثمتها.

وإني لا أصدق أن حب الأخ وشرفه الموصوم هو الذي دعاك لهذا الاهتمام وعجلت لأجله، كلا بل أمانيك في الملك التي لا تنطفئ من قلبك، والإعجاب برؤية عشرين ملكًا تخدمك وتخشاك، ويعهد إليك بمقاليد أمور المملكة التي عبدها فؤادك، وتريد أن تضحي لأجلها ابنتك أيها القاسي الغليظ القلب، ولا يحركك قلبك لترفض هذه الضربة الفاجعة التي تريد أن يكون لك بها فضل وحشي.

تغار على ملك تحسد عليه أن نلته، وتود أن تبتاعه بدمك راغبًا أن تفحم كل مجترئ أراد أن ينازعك فيه. أتعدُّ إذن والدًا؟ آه! إن فكري يسلم ويقر بقسوة هذه الخيانة.

وذاك الكاهن الذي التفت حوله فئة ممن لا قلوب لهم ولا خلاق يريد أن يمد يدًا أثيمة إلى ابنتي، ويمزق أحشاءها، ويستشير الآلهة بعين زائغة وقلب خفاق، وأنا الذي أتيت بها وهي متهللة مستبشرة معجبة بجمال يسلب النهى، أرجع على عقبي وحدي بخفي حنين يائسة بائسة! وأرى الطرق ما برح عرفها الشذي متضوعًا مما نُثِرَ تحت أقدامها من الأزهار.

كلا فإنني لا أقودها إلى العذاب أو تضجّ لليونان ضحيتان، ولا خوف أو احترام يستطيع أن يفصلها مني أو ينزعها من بين ذراعيّ إلا بعد أن يدميها، يا لك من بعل

^{١١} ابنة هيلانة.

^{١٢} يريد زوجته التي هي كقطعة منه.

^{١٣} بطل من فرسان اليونان ابن إيجيه، وملك أتينه.

وحشي وأب قاس! تعال لتريني كيف تقدر أن تنتشلها من بين يدي أمها؛ فادخلي إذن يا بنيتي وأطيعيني على الأقل للمرة الأخيرة.

(٢) فيدر Phèdre

(١-٢) الملخص

رواية محزنة ذات خمسة فصول، مُثِّلَت للمرة الأولى على مسرح «الكوميدي فرانسيز» في أول يناير سنة ١٦٧٧، وقد مَثَّل فيها راسين غرام فيدر المحرم، وهي زوجة «تيزيه» لابن زوجها «أبوليت»، الذي كان نموذجًا للشرف والعفاف والطاعة النبوية، وكان هذا الشاب عاشقًا لفتاة تُدعى «أريي»، رقيقة العواطف ذكية الفؤاد قوية العزيمة، وكان «تيزيه» يمثل أبا يُرْتَى لحاله لما انتابه من المصائب، كما يمثل «تيرامين» وهو مُؤدَّب أببوليت الفصاحة والبلاغة، و«إينون» مُرْضِع فيدر ذات نفس منحطة تخلص ولو في الاشتراك في الجرم.

وأهم ما تدور عليه الرواية وبيت القصيد فيها هو أحوال فيدر المدهشة، التي ربما كانت الأولى في بابها في جميع الروايات الفرنسية.

كانت عواطف فيدر وغرامها المبرح قاسية شديدة، دارت على جميع أوجه الحب من: توسل، ولعن، وغضب، وغرور، وخرف حقيقي. وكانت فيدر ليست عديمة الضمير بالمرة، بل كان يجعلها تقاوم وتناضل وتتألم وتئن إلى أن تابت قبل موتها، ولا داعي للتطويل في سرد هذه الحوادث؛ لأن أغلبها موجودة في النبذة التي عربناها.

(٢-٢) نبذة من رواية فيدر

المنظر الثالث من الفصل الأول

(فيدر - إينون)

فيدر: فلنقف عند هذا الحد يا عزيزتي إينون؛ فإن جسمي لا يكاد يتماسك، وخانتني قواي المضمحلة، وكلّ مني الطرف من النور الذي أراه، وترين ركبتَي المرتجفتين توشكان أن تختفيا تحتي ولا يحملانني، فوا أسفاه على حالتي (ثم تجلس).

إينون: أيها الآلهة القادرون! لترضكم عنا وتسترحمكم دموعنا المنهملة.
فيدر: ما أثقل عليّ من هذه الخُمُر^{١٤} والحليّ والحلل التي لا طائل منها، ولا أكاد أستطيع حملها؟! وأي يد منغصة عقدت مني الشعر ورتبته فوق جبيني؟ إذ كل شيء أصبح يؤلني ويؤذيني.

إينون: يا لهذه الأمانى التي خيبت بعضها بعضاً، وإنك ساخطة على مقاصدك وهي غير عادلة؛ إذ كنتِ تحرضيننا على تزيينك، وحينما تعاودك ذكرى قوتك الأولى تريدان أن تظهرى للناس وتشاهدي الضوء، وإنك لترينه ويوشك أن يحجبك إذ تكرهينه وأنت التي سعت إليه قدمك وأتيت تطلبينه؟^{١٥}

فيدر: أيها الجد الشريف المجيد لأسرة حزينة بائسة. أنت الذي افتخرت وأُعجبت بك أُمي بأن كانت لك ابنة، وربما تخجل مما أنا فيه من الاضطراب، وأنت أيتها الشمس قد أتيت لأتزوّد منك بالنظرة الأخيرة.

إينون: ما لي أراك لا تفارقك هذه الرغبة القاسية سائمة من الحياة، مستعدة لها استعداداً مشئوماً؟

فيدر: أيها الآلهة! ألسن الآن جالسة في ظلال الغاب؛ فمتى أستطيع أن تتبع عيني خلال غبار شريف عجلة^{١٦} فارة إلى المحجر؟

إينون: ما هذا يا سيدتي؟
فيدر: ما أحمقني! أين أنا وماذا قلته؟ أين ضلت مني الأمانى والحجى؟ فقدت صوابي: والآلهة هي التي نزعتني مني.
إن وجهي يا إينون علته حمرة الخجل؛ إذ تركت ألامي المخجلة ظاهرة للعيان، والعين غارقة بعبراتها رغماً عني.

^{١٤} جمع خمار، وهو ما تلف به المرأة رأسها.

^{١٥} أنْهَكَ الحُبُّ قواها وطرحها على فراش المرض، ولم تخرج مدة من مخدعها، فاشتدت أن تتزين وتخرج إلى بهو البيت؛ لتُشاهد النور، وتستنشق الهواء، ولكنّها ما مشت غير خطوات قليلة إلا وخانتها قواها، فجلست من شدّة ضعفها، وطفقت تلعن النور الذي تُشاهده، واليد التي زينتها.

^{١٦} العجلة: هي العربة، وهذا القول خرف عند نوبة اختلاط عقلها من المرض وفرط الحُبِّ.

إينون: إذا كنت خجلة فاخجلي من صمتك الذي يزيد في آلامك ومتاعبك، يثور ثائرك أن رعينك باعتنائنا وتُصم أذنك لحديثنا، أتريد أن تعجلي على البقية الباقية من أيامك دون رحمة؟ أي غضب يحول دونها^{١٧} في ميدان السباق عن بلوغ شأوها؟ خيم الليل ثلاثاً وكرَّ عليه النهار ثلاثاً فبدَّده، ولم يطرق الكرى لك عيناً مذ رزح جسمك تحت وطأة الألم والسقم دون طعام، ماذا تسول لك به النفس من سيئ المقاصد؟ وبأي حق تريد أن تفتكي بنفسك، مهينة الآلهة الذين تفضَّلوا عليك بنعمة الحياة، وتخونين زوجاً ربطتك وإياه عرى العهد، والميثاق، وأولاداً بؤساء يحملون بعدك نيراً قاسياً. أتؤملين أنه في اليوم الذي فيه تفارقينهم يتعطف عليهم ابن الأجنبية عدوك وعدو أسرتك، هذا الولد التي حملته «إحدى الأمازون»^{١٨} في أحشائها وهو إيبوليت.

فيدر: آه يا رباه!

إينون: هل يجرح عواطفك هذا العتب؟! **فيدر:** يا له من اسم خرج لسوء الحظ من فمك! **إينون:** إنك محقة في استعار غضبك؛ إذ أحب أن أراك وأنت مرتعدة من سماع هذا الاسم المنكود. عشتِ وأنعشكِ الحب والواجب وطالت حياتك؛ لئلا تتألمين من أن يقهر أولادك أحد أبناء «السيت»^{١٩} ويتأمر على أشرف دم في اليونان. تجنبي الكدر والغيط؛ فإن كل لحظة تودي بحياتك، واجتهدي في إصلاح ما تلف وانتَهك من صحتك وقوتك المضمحلة؛ حيث أوشكت أن تنصرم أيام حياتك ولكنها ستطول وتصبح زاهرة ناضرة.

فيدر: لقد أطلت كثيراً هذه المدة الأثيمة.

إينون: هل يمزق فؤادك تعذير السريرة؟ أم أي جريمة أحدثت لك هذا الاضطراب العاجل؟ مع أن يدك لم تنغمس في دم بريء.

^{١٧} أي دون أيَّام حياتها.

^{١٨} في خرافات اليونان يقولون: إنَّ الأمازون كانت أمة من النساء، وكُنَّ يعدمن أولادهن الذكور، ويحرقن شديهن الأيمن؛ لِحَسْنِ رمي النبال، وكُنَّ يعشن على ضفاف نهر تيرمودون في كابادوس.

^{١٩} أمة قديمة متوحشة رحالة كانت تسكن الشمال الشرقي من أوروبا، والشمال الغربي من آسيا.

فيدر: إنني بفضل الله لم تقترب يداي إثمًا، وربي راضٍ عني لبراءة قلبي كيدي.
إينون: أي عزم فظيع يرتعد منه قلبك ويرتعد؟
فيدر: لقد صرحتُ بما فيه الكفاية؛ فوفري عليّ الباقي فإنني أود لو أموت لئلا أقر
باعتراف مشئوم.

إينون: موتي إذن وأقبري معك هذا الصمت القاسي، وابحثي عن يد أخرى لتغمض
منك العينين؛ إذ لم يبق لك إلا نور ضئيل، وستكون روعي البادئة باللاحق بالموتى؛ إذ
أمامي ألف سبيل يوصل إليهم وستختار آلامي أقربها وأقصرها.
متى غرّتك ذمتي أيتها القاسية؟ ألا تعلمين أن ذراعَيّ هما اللذان تلقياك عند
الوضع؟ أتجهلين أنني فارقت وطني وأولادي لأجلك؟ أبذلك تكافئين إخلاصي ووفائي؟!
فيدر: أي ثمرة تؤملينها من القسوة والشدة؟ وإنك لترتعدين من فضاة الموقف أن
بحث لك بالأمر بعد الصمت.

إينون: بربك قولي لي من يطاوعه قلبه ويستطيع أن يشاهدك وأنت تسلمين الروح
أمام ناظريّ.

فيدر: حينما تعلمين إثمِي والحظ السيئ الذي يثقل كاهلي، ترين أن ذلك ليس
وحده المسبب لموتي، بل علمك بجريرتي يزيدني إثمًا وجرمًا.
إينون: بحق ما ذرفته لأجلك يا سيدتي من العبرات وركبتك الضعيفتين، اللتين
ألثمهما أن تخلصيني من هذا الشك الممقوت.

فيدر: انهضي فلكِ ما تبغين.

إينون: حدثني فإنني صاغية.

فيدر: إلهي ماذا أقول لها؟ وبأي طرف أفتتح الحديث؟

إينون: أتحبين؟

فيدر: نعم، ومن الحب عراني ما عراني.

أيون: ولَمَن؟

ستسمعين نهاية القبح فإنني أحب ... ولهذا الاسم المنكود أرتجف وأرتعد. أحب ...
إينون: مَنْ؟

فيدر: ألا تعرفين ابن «الأمازون» هذا الأمير الذي طالما اضطهدته؟

إينون: إيبوليت! يا رباها!

فيدر: أنت التي ذكرت اسمه.

إينون: اللهم إن جميع دمي تتلجج في عروقي؛ فيا لخيبة الأمل والجرم! ويا لأسرة يُرثى لها! ورحلة منحوسة هل اقترب منك إذن أيها الشاطئ التعس؟

فيدر: أتاني مصابي من أبعد من ذلك؛ فياني ما كادت تجمعني وابن إيجيه^{٢٠} روابط الزواج واستتبت راحتي وسعادتي؛ إلا وأظهرت لي «أتينه» عدوي الألد، شاهدته فاحمرَّ وجهي خجلاً، ثم صار شاحباً بمرآه.

ثار بنفسي الحائرة ثائر الاضطراب، وأصبحت العين لا تبصر ولا أستطيع التكلم، وكنت أشعر أن جسمي يتلجج تارة ويحترق طوراً، وقد عرفت الحب ونيرانه المخوفة وما يطارطني به من العذاب الأليم الذي لا يؤمن شره، وظللت أوالي الدعوات لأحيد عما يؤلني ويؤذيني.

بنيت للهوى معبداً واعتنيت بتزيينه، وكنت محاطة بالضحايا في كل آونة باحثة بين جوانبهم عن صوابي الضال، ولكن الدواء لا ينجع فيما أؤمن واستعصى من الأدواء، وكنت أحرق البخور على المذبح بلا طائل ولا جدوى، وعندما يتوسل فمي إلى الزهرة كنت أكاد أعبد إيبوليت، وأراه بلا انقطاع بجانب المذبح الذي كنت أبخره.

كنت أقدم جميع ما لدي لهذا المعبود من دون الله، ومن لا أستطيع أن أسميه فكنت أتجنبه في كل مكان؛ فيا لمنتهى الشقاء إذ كنت أرى ملامح أبيه مرتسمة في وجهه فأضطرب وأثور.

كنت أبذل الجهد في اضطهاده لأبعد عني عدواً أصبحت أهيئ به وأعبد وأتصنع الحزن والهم كعادة نساء الآباء الظالمات مجتهدة في نفيه وإبعاده، والفضل في انتزاعه من أحضان أبيه راجع إلى صياحي المستمر.

وقد استنشقت الحياة منذ غيابه، وقضيت أيامي في الدعة والسكون، خاضعة لبعلي كاتمة عنه قلقي، واستثمرت هذا الثمر من زواجه المشئوم، ولكن لا يغني حذر من قدر! وحينما ذهب مع زوجي إلى «تريزين» بصُرت هناك بعدوي الذي كنت أفر منه، وانفجر جرحي الذي لم يندمل، وليس الحب مختلفاً في عروقي، بل الحب أجمعه الذي

^{٢٠} هو تيزيه زوجها.

اقتنصني غنيمة له ولم أفلت من مخالفه، وقد سبَّب لي جرمي فزعًا عظيمًا؛ حتى أبغضت الحياة وكرهت الحب، ووددت لو أقضي نحبي لأحفظ مجدي، وأداري غرامي المشؤم عن العيون؛ ولم أستطع أن أوقف دموعك وأدفع مقاومتك، وقد بحث لك بكل شيء ولا داعي إذن للتوبة حيث أقترَب الأجل؛ فلا تؤليني بعثبك الظالم، وأن تكفي من إسعادك وغياثك الذي يذكرني بالبقية القليلة من حياتي التي أوشكت أن تنقضي.

المنظر الخامس من الفصل الثاني

(فيدر - إيبوليت - إينون)

فيدر (تخاطب إينون داخل المسرح): هاك مَنْ إذا رأيته يهرع جميع دمي إلى قلبي وأنسى ما أريد أن أفاتحه به.

إينون: ألا تفكرين في ولد لا أمل له إلا فيك؟

فيدر (تخاطب إيبوليت): يقال إن سفرًا عاجلاً سيحرمننا منك أيها الأمير، وقد جئت لأشاطرك الآمك وعبراتك ولأشرح لك مخاوفي وإشفاقي على ولد أصبح فاقداً لأبيه، وسيشهد موتي القريب، وإن له بالمرصاد ألفاً من الأعداء، يريدون أن يبطشوا بطفوليته، ولا أحد يقدر أن يحميه من مكائدهم غيرك، ولكن في النفس قلق يضطرب منه فكري، وهو خوفي من أن تُصمَّ أذنك عن استغاثة ولدي، وأخشى أن تصب عليه جامٌ غضبك العادل وتتبعه بأمة القبيحة.

إيبوليت: ليست هذه العواطف الدنيئة من شيمتي يا سيدتي.

فيدر: إن كرهتني فلا أشكو منك أيها الأمير، فقد رأيتني باذلة الوسع في إيدائك، وإنك لا تستطيع أن تقرأ في أعماق فؤادي ما حفظته لك من الضغن والحقد، ولم أستطع أن أجعلك تنن وتتألم ونحن على شاطئ واحد؛ فكدت لك وعملت ما في الجهد سرًا وعلنًا لأبعدك عني وتفصلنا بحار عجاجة، وأمرت أن لا يُذكر أمامي اسمك، فلو قيسَت الإهانة والحالة هذه بالعقاب، أو كان الحقد وحده يستطيع أن يثير الحقد، لما استحققت مرأة الشفقة والحنان وكانت أهلاً لما تفرغه عليها من ضغائنك أيها الأمير.

إيبوليت: من شيمة الأم أن تكون غيورة على حقوق أولادها؛ فترينها لا تغفو عن ابن زوجة أخرى إلا نادراً، وأعرف حق المعرفة يا سيدتي أن الظنون الشكوك الممقوتة هي ثمرة الزواج الثاني، وقد ينالني من غيرك ما لحقني منك من الإهانة، بل ربما تحملت سواك ولو كانت أشد وطأة.^{٢١}

فيدر: أيها الأمير! إنني أستشهد الله الذي سمحت قدرته أن أكون مستثناة من هذه القاعدة العامة، ولكن قللاً آخر ينغصني ويفترسني!

إيبوليت: لا أود الآن يا سيدتي أن تزيدني اضطراباً على اضطراب، وربما كان أبي حياً وتسترحم الآلهة دموعنا المنسجمة ويمنون علينا بأوبته، رعا «نيبتون»^{٢٢} بعين عنايته، ولا أضن أن دعاء أبي وتوسله إلى هذا الرب الحفيظ يذهب صرخة في وادٍ.

فيدر: لا يُنظر شاطئ الأموات مرتين أيها الأمير، وحيث رأى «تيزيه» هذه الضفاف السود، فإن أملك في الآلهة برجوعه يذهب أدراج الرياح، وهيهات أن يُفْلِت الحريس أكرون^{٢٣} غنيمته.

ماذا أقول؟ لم يمت أبوك قط إذ يحيا، وإنني أتصور أنني أشاهد بعلي وأحدثه، وقلبي ... قد ضللت وضاع مني النهى أيها الأمير، وظهرت حميتي رغمًا عني.

إيبوليت: أرى حبك مبرحاً متيمًا، وإن كان تيزيه أصبح في عداد الأموات، لكنه ما برح نصب عينيك، والحب يحرك دائماً ما سكن من آلام نفسك وأشجانها.

فيدر: أجل أيها الأمير، وإنني لأتململ وأحترق لأجل تيزيه، ولست أحبه^{٢٤} كما رأوه في الجحيم^{٢٥} متقلباً متغيراً لا ثبات له عاشقاً لألف واحدة، ومن ذهب أخيراً ليدنس

^{٢١} أي إنه لو كان أبوه تزوج بغيرها لأهانته واضطهدته الأخرى كهذه، كما هي عادة جميع النساء ييغصن أولاد أزواجهن.

^{٢٢} إله البحار.

^{٢٣} في الميثولوجيا أنه نهر في جهنم، لم يستطع أحد اجتيازه مرتين، ويستعمله الشعراء الفرنسيون مرادفاً للجحيم.

^{٢٤} تُخاطبه بالمواربة ويرمي قولها أنه أشبه بأبيه حتى يكادان لا يفرقان، وأنّها لا تحب أحدهما المتقلب الذي كان همه الجري وراء النساء، بل تحب ابنه الذي هو بمثابة تيزيه ثانٍ، ويمتاز عنه بأمانته وإخلاصه وحيائه وجماله، وغير ذلك مما سردته في كلامها.

^{٢٥} في خرافات اليونان أن جهنم موجودة بجزيرة وراء المحيط في الغرب الأقصى في جهة لا تُضيئها الشمس، ويتخللها أربعة أنهار؛ منها: «أكرون» الذي سبق شرحه، وإله الجحيم «هادس»، وزوجته «بيرسيفون»

عرض إله الموتى، بل أهواه أميناً معجباً به شيء من القسوة، يختطف اللب بجماله، فتتجاذباً للأفئدة، متحلياً بما توصف به الآلهة أو مثلما أراك رأي العين، كان شببهك شكلاً وقدّاً وعيناً وحديثاً، وحياءك هذا الشريف صبغ وجهه حين خاض غمار اللجج للوصول إلى كريت؛ فكان كفواً وأهلاً لبنات مينوس، فماذا كنت تعمل إذن؟ ولم لم يقع انتخاب أبطال اليونان على إيبوليت؟ ولم كنت صغيراً ولم تستطع أن تركب السفينة التي أقلتة وأوصلته إلى شواطئنا، وكنت أنت^{٢٦} الذي أهلكك وحش كريت^{٢٧} رغمًا عن جميع تعاريج مأواه الفسيح.

التي سافر لاختطافها «تيزيه» زوج فيدر، وفي الجحيم قضاة لحاسبة الموتى منهم: «مينوس» أبو فيدر، ولها حارس يدعى سيربير.

^{٢٦} تتحسر فيدر أن كان إيبوليت وقت سفر أبيه إلى كريت صغير السن، ولو كان كبيراً وذهب وقتئذ بدل أبيه لفاز بزواجها، ولم تكن عرضة لجميع هذه الآلام والشجون.

^{٢٧} نذكرها هنا سيرة تيزيه بالاختصار؛ ليقف القارئ على أسرار هذه الرواية؛ لأنها مرتبطة بالميتولوجيا، كان تيزيه أعظم أبطال أتينه وملكها، وُلد بمدينة «تريزين»، وكان أبوه «إيجيه» ملكاً لأتينه أيضاً، وقد وضع سيفه ونعله تحت صخرة عظيمة، وقال: إذا ولدت امرأتي «إيترا» ولداً وبلغ مبلغ الرجال يجب عليه أن يُعالج الصخرة وحده؛ ليرفعها ويأخذ السيف والنعل، ثم يذهب إلى أتيك ليعرفه الناس، ولما شبَّ الولد عند جده «بيتيه» والد أمه وبلغ أشده ذهب إلى الصخرة وزعزعها وأخذ سيف أبيه ونعله، وسافر إلى أتيك، وفي أثناء طريقة قطع دابر من قابلهم من قطّاع الطريق والوحوش، ولما وصل إلى أبيه أرادت امرأته الأخرى «ميديه» أن تسمه، فكشف سرها زوجها وطردها، وشارك ابنه معه في الملك، ودافع تيزيه عن أبيه ضد «البالاتيد»، ودلّل ثور ماراتون وضحا «لابولون»، ثم سافر إلى كريت ليخلص أهل أتينه من الجزية العظيمة التي كانوا يدفعونها إلى «مينوطور»، وهو وحش نصفه ثور والنصف الآخر رجل حملت به «باسيفاييه» زوجة مينوس من ثور أبيض أرسله «بوزيدون» إله البحر، ثم حبس مينوس هذا الوحش في «لابيرنت» الذي بناه «ديدال»، وكان يطعمه لحم الإنسان؛ لأنه عقب إحدى الحروب التي قتل فيها ابنه أندروجيه أراد أن ينتقم ويثأر لابنه بأن ضرب على الأتينيّين جزية سنوية، وهي سبعة غلمان وسبع فتيات كواعب تقدم طعاماً لمينوطور، ولما وصل تيزيه إلى لابيرنت قابلته أريان ابنة مينوس وناولته خيطاً كان يستعمل بمثابة دليل للداخل في لابيرنت لئلا يتيه ويضل؛ لتشعب مسالكها العديدة، فقتل تيزيه مينوطور، وركب البحر مع أريان، ثم هجرها على شاطئ ناكسوس، فرمت بنفسها في البحر يأساً، ثم اختطف ملكة «الأمازون»، وقد سبق ذكر هذه الأمة واسمها «أنتيوب»، ورزق منها بايبوليت، ثم ذهب إلى الجحيم؛ ليخطف زوجة إلهها «هادس»، ولكنه لم يُفلح هذه المرة، ثم تزوج أخيراً بفيدر ابنة مينوس، وجرى ما نحن بصده.

وقد سلحته أختي بالخيطة المشئوم، بل أنا التي سبقتها في هذا العزم؛ لأن الحب أنار بصيرتي. فأنا إذن أيها الأمير التي هدتك السبيل في مسالك «لابيرنت» المضلة، وكم كلفني من الشجون والآلام هذا الرأس الجميل! ولم يك هذا الخيط ليضمن لك حبيبك وقرينتك في الخطر الذي ذهبت إليه، وقد أردت أن أسير أمامك فتلج معك فيدر «اللابيرنت» لتشاطرك النجاة أو الهلاك.

إيبوليت: ألهي! ماذا أسمع؟ أنسيت يا سيدتي أن تزيه أبي وزوجك؟
فيدر: أتحمك على قول فُهِتْ به وأنا فاقدة الصواب أيها الأمير؟ فهل أضعت مجدي وشرقي؟

إيبوليت: عفواً سيدتي، وإني مقر والخجل يصبغ وجهي بأني اتهمت حديثك البريء بغير حق، ولا أستطيع من الخجل أن أمكث أمامك فلذلك أبارحك ...
فيدر: لقد سمعني طويلاً أيها القاسي، وقلتُ لك ما فيه الكفاية لانتشالك من هذا الضلال! أتعرف إذن فيدر وغضبها: قد شغفني الحب، ولا تفكر أني في الوقت الذي أحبك فيه أعد نفسي بريئة. كلا، وإني واثقة بزلتي، ولا تظن أن مجاملتي الفاضحة هي التي ولدت آلام هذا الحب الذي خلط مني الحجي.
اننقمت مني الآلهة بأن سلطت عليّ هذا الحب، وإني أمقت نفسي أكثر مما تبغضني كما تشهد الآلهة الذين أشعلوا نار هذا الحب المنكود في دمي. ظن هؤلاء الأرباب أنهم أتوا بمجد عظيم بأن فتنوا فؤاد امرأة ضعيفة فانية.
يذكرك الماضي بأنني كنت أطاردك لأهرب من حبك أيها القاسي، وكنت أستثير حقدك لأقاوم حبك؛ ولكن كل ذلك لم يُجِدْ نفعاً، فإنك كلما زاد بغضك لي زاد حبي لك وكانت مصائبك لي فتنة وسحراً جديداً.

ضنيت ونحلت من نار الهوى والبكاء، ويكفي لإقناعك أن تشاهدني بعينيك إن استطاعتا أن تحدقا في وجهي؛ فماذا تقول في هذا الاعتراف المخجل؟ وهل تظنه إرادياً؟
جئتُك مضطربة راجفة لولد لا أقدر أن أبغضه، متوسلة إليك بأن لا تحقد عليه، ولكن لكون القلب مفعماً بالحب أهمل عزمه فلم أتكلم إلا عنك؛ فاننقم واقتص مني لهذا الحب المقنوط، وخلّص العالم من وحش يغيظك؛ لتكون أهلاً لأبوة بطل عظيم أوجدك في الدنيا.

أُتَقَدِّمُ أرملة تزيهه على حب إيبوليت؟ أتظن أنني هذا الوحش الهائل الذي تفرُّ منه. هاك قلبي وهو الموضع الذي يجب على يدك أن تطعنه، فرغ مني الصبر لتكفير الإهانة، وأشعر بأن قلبي يتقدم نحو ذراعك.

اضرب وإلا أن ظننت أنه ليس أهلاً لضربتك، أو كان حقدك يحسدني على هذا العذاب الذي أستعذبه وأستمرته أو كنت تستنكف أن تدنس يدك بدم حقير، فأعزني سيفك إن أعوزني ذراعك.

إينون: ماذا تصنعين يا سيدتي؟ قد أقبلت الناس فتداركي أن يلمح أحد على وجهك ما ارتسم عليه من هذه الشهود الممقوتة، فهيا ادخلي واهربي من هذا الخجل البين.

المنظر الثالث من الفصل الثالث

(فيدر - إينون)

إينون: ينبغي لك أن تعدمي من مخيلتك فكرة حب لا طائل منه يا سيدتي، واذكري فضيلتك السابقة؛ فإن الملك الذي ظن أنه مات سيظهر أمام ناظريك إذ أقبل تيزيه، وهو الآن في هذه المواطن، والشعب يحتشد ويعدو لرؤيته، وحينما خرجت اتباعاً لإشارتك لأبحث عن إيبوليت شاهدت آلافاً من الأصوات بلغت عنان السماء ...

فيدر: زوجي حي يا إينون وكفى، وقد اعترفت اعترافاً دنيئاً بحب يهينه ويفضحه، إنه عائش، ولا أبغي أن أعرف أكثر من ذلك.

إينون: ماذا؟

فيدر: لقد أنبأتك به ولكنك لم تصدقيني، وقد تغلب دمك على تعذير سريرتي، وسأمت هذا الصباح وأكون أهلاً لأن تبكينني العيون؛ إذ اتبعت إرشادك، وسأقضي نحبي فاقدة شرفي.

إينون: تموتين؟!

فيدر: أيها الإله العادل! ماذا أعمل اليوم؟ سيظهر بعلي وابنه بجانبه، وسأرى كيف يبصرني شاهد غرامي الفاحش وهو متشوق لأن يعرف بأي جبين أستطيع لقاء أبيه، وقلب مفعم بتأوهات جعل في أذنه وقراً عن استماعها، وعين مغرورة بدموع مل منها وسئم؛ أظنن أنه مشفق على شرف أبيه ويكتم عنه هذه الحمية التي أهاجت مني كامن الآلام ويسمح بخيانة أبيه وملكه؟ أترأه يستطيع أن يضبط ما عنده من الحقد علي؟

سيلتزم الصمت بغير جدوى، وإني أعرف خيانتني يا إينون، ولست من النساء المستهترات اللاتي نضب منهن ماء المحيا؛ فلا يبالين بالفضائح والمعزات، ويستمرثن مرعى الجرم، ويدقن فيه الدعة والسلم؛ حتى عرفن أن يحملن جبيناً لا يضرجه الخجل.

إني أعلم حدتي وأذكرها، ويخيل إليّ أن هذه الجدران والقباب ستنتطق وتتهمني منتظرة بعلي لتوقفه على حقيقة الأمر؛ فلنمت لتخلصنا شعوب من جميع هذه الأهوال. هل الموت مصيبة عظيمة؟ كلاً؛ فإنه لا يحدث أقل فزع للتعساء المنكوبين، ولا يعبتون به، ولست أخشى غير الاسم الذي أتركه بعدي ميراثاً مروّعاً لأبناء عثر بهم الجد! إن دم «المشترى» يجب أن يجزئهما؛ إذ يحق لهما أن يفتخرا بنسب عظيم، ولكن إثم الأم عبء ثقيل، وأخاف أن يعيرهما أحد بجرم والدتهما يوماً ما؛ فيضاماً بهذا الحمل الشنيع، ولا يستطيع أحد منهما أن يرفع عينيه من الخجل.

إينون: هذا مما لا يريب فيه، وإني مشفقة على كليهما كما أنك محقة بوجك العادل، ولكنك تعرضينهما لإهانة يا لها من إهانة، وتشهدين على نفسك معترفة بجريرتك. وإن تم ما أنت عازمة عليه يقولون: إن فيدر أتت عظام الإثم والجرم، وهربت من أمام زوجها المغدور ومراه المرعب؛ وسيهنأ إيبوليت بموتك؛ إذ به يؤيد قوله، ماذا أستطيع أن أجيب به متهمك؟ إذ سيفحمني بسهولة وأراه متمتعاً بهذا النصر الفظيع، ويقص خزيك على من أراد استماعه. آه! أولى بي والحالة هذه أن تمحقني صاعقة من السماء، ولكن اصدقيني إن كان لم يزل عندك معزراً، وبأي عين تنظرين هذا الأمير الجريء؟ **فيدر:** أراه أمام ناظري كوحش مزعج.

إينون: ولم تتنازلين إليه عن نصر تام؟ أخشينه؟! ألا تطاوعك الجرأة بأن تكوني السابقة في اتهامه بالجرم الذي يستطيع اليوم أن يلصقه بك؟ ومن يفند قولك؟ والكل يعاونك على اتهامه، وحبذا الدليل الذي يؤيد قولك أن ترك لحسن حظك سيفه بين يديك، وعلم أبوه من أمد مديد بما سببه لك من الاضطراب الحاضر والمتاعب والآلام السابقة ونفاه وفقاً لإرادتك.

فيدر: ما أشد جرأتي إذن على اضطهاد البراءة وتعكير صفوها! **إينون:** إن همتي ليست في حاجة إلا لصمتك، وإني مثلك أرتعد من تبكيت الضمير، وستبصرينني مسرعة في اقتحام ألف موتة، وحيث لا سبيل إلى نجاتك من مخالب الموت غير هذا الدواء المحزن، ترينني أضحي لأجل حياتك كل مرتخص وغالٍ. وسأخاطب تيزيه حتى إذا هاج هائجه من إرشادي قصر انتقامه على نفي ابنه، والوالد يا سيدتي حينما يعاقب يكون كما تعهدينه رءوفاً رحيماً، ويكفيه خفيف القصاص لتسكين غضبه.

ولو قدر وسفك دمه فإنه يكون فداءً لشرفك المهدد، وإن الابن لكنز ثمين لا يُستطاع الفتك به؛ فأطيعي إذن جميع ما يتطلبه منك شرفك يا سيدتي؛ إذ لأجل نجاته مما حاق به يجب عليك أن تضحي لأجله كل شيء حتى الفضيلة. قد أقبل الناس وأرى بينهم تيزيه.

فيدر: آه! إنني أشاهد إيبوليت، وأرى فنائي مسطرًا في عينه الجامدة الوقحة، فاعلمي ما شئت فقد فوضت إليك الأمر؛ إذ ذهب صوابي من اضطرابي.

المنظر الثاني من الفصل الرابع

(تيزيه - إيبوليت)

تيزيه: آه! ها هو أيها الأرباب العظام! وأي عين لا تنخدع مثلي في هذه الهيئة الشريفة؟ هل تتلأأ على جبين الزاني النجس سيما الفضيلة المقدسة؟! ألا تُعرف بالدلائل الصادقة قلوب الخائنين؟

إيبوليت: أيتيسر لي أن أسأل الأمير عما كدر صفوه واكفهر منه وجهه الجليل؟ ألا تستطيع أن تثق بي وتأمينني على هذا السر؟!

تيزيه: أتجسر أيها الخائن أن تظهر أمامي؟ لم تركتك الصواعق أمدًا طويلًا أيها الوحش الضاري والبقية النجسة من قطاع الطرق الذين طهّرت منهم الأرض؟ وبعد أن قادتك حدة حبك الفظيع إلى مضجع أبيك تجترئ أن تريني وجهًا أقبح من وجه العدو! أ تظهر في مواطن مُلئتُ بفضائحك بدلًا من أن تبحث لك عن بلد مجهول لم يصله اسمي. اهرب أيها الغادر، ولا تقدم على حقدي وإهاجة غيظ لا أكاد أضبطه، وكفاني عارًا أبدًا أن أوجدت في الدنيا ولدًا أثيمًا مجرمًا، وإن قتلك أيضًا يكون لي ذكرى مخجلة تدنس مجدي وجليل أعمالي.

اركب متن الفرار إن كنت تريد أن تنجو من قصاص مفاجئ يلحقك بالمجرمين، الذين اقتصت منهم يدي هذه، وحذار أن تراك الشمس التي تضيئنا واطنًا بقدمك الجسورة هذه الأماكن، عَجَلْ بهربك دون أن تؤمل العودة لتظهر ممالك من مرآك الشنيع.

وأنت يانيبتون، أتذكر أن شجاعتي التي قطعت بها دابر العرر من سفاكي الدماء وطهرت منهم شاطئك، وقد أردت أن تكافئني على ما بذلته من الجهد بأن تستجيب لي أول دعاء، ولم أتوسل إليك لتنقذني من شدائد السجن القاسي؛ إذ كنت حريصاً على معونتك وإسعادك، فأرجأت دعائي وأدخرته لما هو أهم وأعظم. فالآن أبتهل إليك أن تنتقم لأب سبي الحظ، وقد تخلّيت عن هذا الخائن وتركته لغضبك؛ فاخنق ما جرى في دمه من وقیح الآمال، وسيعترف تيزيه بأفضالك ونعمك عندما تستشيط غضباً.

إيبوليت: أتتهم فيدر إيبوليت بحب أثيم؟! يا لمنتهى الفظاعة التي حارت منها النفس، كم من ضربة لم تكن بالحسبان تثقل كاهلي وتلجم لساني وتخنق صوتي.

تيزيه: أترغم أيها الخائن أن فيدر تطوي وقاحتك الوحشية في زوايا الصمت الفاضح؟ كان الأجدر بك عندما هربت من أمامها أن لا تترك سيفك؛ إذ هو بين يديها مساعد على نفي قولك، بل كان خليقاً بك أن تزيد جرمك بأن تجهز على كلامها وحياتها. **إيبوليت:** لقد هاج غيظك من كذب ممقوت، وكان الواجب عليّ أن أنطق بالحقيقة أيها الأمير، ولكنني أغض الطرف من سر يمسك فيضيق صدري ولا ينطلق لساني؛ فارض بالاحترام الذي يطبق فمي بدون أن تزيد في همومك بيدك، وألق نظرة على حياتي وافحصها وفكر من أنا؟ أفاتك أن الجرائم العظيمة تسبقها أصغر منها؟ ومن يستطيع أن يتعدى الحدود الشرعية، أو يخرق حرمة الحقوق المقدسة؟! والجرم كالفضيلة له درجات؛ إذ لم يسمع أن البراءة الحية انتقلت فجأة دون استدراج إلى منتهى الوقاحة والضلal، ويوم واحد لا يصير صاحب الفضيلة خائناً قاتلاً نذلاً يأتي المنكر مع محارمه. حملتني في أحشائها طاهرة عفيفة من الشجاعة والإقدام بمكان رفيع، فلم أكذب دمه وأظلمها، وكان بيتيه موصوفاً بالكياسة والذكاء بين جميع العالم، وقد تفضل بتهذيبي، وإنني لا أود أن أصف نفسي بأكثر من ذلك، وأظن يا أميري أن حظي الذي أحرزته من الفضائل هو الذي أشعل الحقد عليّ؛ فرموني بهذه الكبائر الفظيعة، وإن إيبوليت لمعروف في جميع اليونان بأنه بلغ منتهى الفضيلة، وإنك تعرف من شجوني ثبات عزمي في الشدة والجفاء، وليس النهار بأنقى من قلبي؛ أبعد ذلك يريدون من إيبوليت أن يفتن بنار حب دنس؟!

تيزيه: نعم، وهذا الكبر والإعجاب هما اللذان أوقعاك في شر عملك أيها النذل! وأرى في جفائك وأنفك المبادئ الشنيعة؛ إذ فتنت فيدر وحدها عينيك الوقيحتين، وكانت نفسك خالية البال عمن سواها، مستنكفاً أن تحترق لأجل حب بريء حلال.

إيبوليت: لا يا أبت؛ فإن هذا القلب كتم عنك كثيراً هواه البريء، ولم يستنكف أن يلتهب منه، وإنني أعترف بين يديك بهفوتي الحقيقية: إنني أحب وأهوى رغماً عن دفاعك، وقد استرقتني أريسي، وصار ابنك أسيراً لابنة بالانت، شغفني هواها وأصبحت نفسي عاصية لأوامرك، لا تتأوه ولا تحترق إلا لأجلها وحدها.

تيزيه: أحبها؟ إلهي! لا لا فتصنّعك شنيع: تتظاهر بالجرم وتتكلّف لتبرر نفسك. **إيبوليت:** منذ ستة شهور وأنا أتجنّبها وأحبها، وقد أقبلت إليك مرتجفاً لأطلعك على أمري. عجباً! ما لي أراك لا يؤثر عليك شيء لانتشالك من أوهامك! فأني يمين هائل تصدقه؟ بالأرض أم السماء أم جميع الدنيا...؟

تيزيه: يلجأ المجرمون دائماً إلى الحلف الكاذب، فأقصر ووفر عليّ حديثاً ممقوتاً إذا لم يكن لفضيلتك الكاذبة معين آخر.

إيبوليت: أظهر لك فضيلتي بأنها كاذبة ومفعمة بالتصنع، مع أن فيدر نفسها يناجيها قلبها بإنصافي وتبريري.

تيزيه: آه! ما أشد وقاحتك وأقواها تهيباً لغیظي!

إيبوليت: ما الزمان والمكان اللذان تحددهما لنفيي وإبعادي.

تيزيه: أذهب إلى ما وراء «أعمدة السيد»؟ وأظنها قريبة بالنسبة لغادر.

إيبوليت: إذا كنتُ أهمل جرماً فظيلاً تتهمني به، فأني صديق يرثي لحالي إن تخلّيت عني وهجرتني؟!

تيزيه: اذهب لتفتش عن صاحب يشرفون الزنا ويستحسنون إتيان المنكر مع المحارم؛ إذ لا يحمي خبيثاً مثلك إلا كل خائن كنود عاطل من الشرف والدين.

إيبوليت: ما برحت تحدثني عن الزنا وهتك المحارم: إنني ملازم السكوت، وإن فيدر ولدتها أم، وهي أيها الأمير من دم تعرفه حق المعرفة، وله من الفضائح والمعزات أكثر مما عندي.

تيزيه: بخ بخ! أخرجك حدة غضبك أمام عيني عن حد الاعتدال؟ فاغرب من وجهي للمرة الأخيرة. اخرج أيها الخائن الغادر، ولا تنتظر من أب يتميز من الغيظ أن يطردك من هذه الأماكن مهاناً مرذولاً.

المنظر السادس من الفصل الخامس

(تيزيه - تيرامين)

تيزيه: أهذا أنت يا تيرامين؟ ماذا صنعت بابني وقد عهدت به إليك منذ نعومة أظفاره؟ ولكن ما الذي يسيل منك هذه العبرات؟ وماذا عمل ابني؟
تيرامين: يا لعناية فات وقتها ولا حاجة إليها؟ حنان لا يجدي! إذ فارقكم إيبوليت.
تيزيه: آلهتي!
تيرامين: ما رأيت أحداً مات أكثر منه حباً لدى الناس، وأتجرأ أن أقول لك أيها الأمير: إنه أخف الناس ذنباً.

تيزيه: هلك ابني؟ عجباً! متى أمد إليه ذراعاً لمعانقته؟ هل نفذ صبر الآلهة وعجلوا بموته؟ أي ضربة اختطفته مني، أم أي صاعقة مفاجئة؟
تيرامين: لم نكد نخرج من أبواب تريزين وابنك راكب عجلته وحرّاسه تعلوهم الكآبة ملتفون حوله مقلدون صمته، فسار وهو فريسة الشجون والهموم في طريق «ميسين»، وقد أرخت يده العنان على ظهور خيله.

ولما كانت جياده الحسان كما عهدها الناس ملئت حمية، لبث صوته وزاغت منها الأبصار، وطأطأت الرءوس يحسبها الإنسان أنها وفق فكرة الحزين؛ إذ خرج من اللجج صوت مزعج عكّر صفو الهواء، فأجابت الصافنات الجياد هذا الصياح المرهب بصهيلها، فتتلّجّ دمنًا في أعماق أفئدتنا، وانتصب شعر أعراف الخيل، وارتفعت على ظهر اليم لجة كالطود واقتربت، ثم تكسرت وقذفت بين الزبد وحشاً هائلًا عريض الجبين مسلح الرأس بقرنين مزعجين، وجسمه مغطى بقصور مصفرة، كأنه ثور صعب المراس أو تنين عظيم البأس، التف عجزه فأحدث ثنّيات معوجة ملتوية، وقد ارتجف من هول زئيره الشاطئ ومادت الأرض وأوبأ الهواء، وتقهرت اللجة التي حملته وهي مروعة منه، وهرب الجمع، والتجأ إلى المعبد المجاور دون أن يتسلحوا بشجاعة لا تعني ولا تنفع، ولبت إيبوليت وحده فكان أهلاً لأن يكون ابناً لبطل حلال. فأوقف خيله وقبض

على حرايه وطعن الوحش بيد لا تخطئ طعنةً نجلاء أصابته في عطفه طفر من حر ألما الوحش، ووقع زائراً تحت أقدام الجياد متمرغاً مظهرًا فمًا ملتهبًا فغطاها بنار ودم ودخان، فأخذها الفزع وصمت أذائها هذه المرة عن استماع الزجر ولم يغن صاحبها ما بذله من الجهد لكبح جماحها؛ حتى كل ساعده وخارت قواه وضربت الخيل اللجم بما يخرج من أفواهها المزبدة الدامية، ويقال: إنه شوهد في هذا الهرج الهائل إله يضغط على جنوب الخيل المغبرة بمهمازه وهو بها الوجل بين الصخور ففرقع محور العجلة وانكسر، وشاهد البطل إيبوليت عجلته وهي تتحطم إرباً إرباً، ووقع هو بنفسه والتفت عليه الأعنة.

فاعذرني لألمي ومصابي، فإن هذا المنظر القاسي سيفجر ينابيع الدمع من شئوني فلا تجف مدى العمر، وقد نظرت أيها الأمير ولدك البائس تجره الخيل التي أطعمها بيده، وكان يود لو يذكرها بحسن صنيعه، ولكن صوته كان يزيد في إزعاجها، واستمرت في عدوها حتى أصبح جسمه داميًا كأنه جرح، وقد ملأنا السهل بصياحنا واستغاثتنا، ثم هدأ قليلًا جماح الجياد ووقفت على مقربة من المقابر العتيقة التي كانت بالملوك أجداده ذخائر باردة جامدة؛ فهرولت إليه متأوهاً وتبعني حرسه، وهدانا إليه ما خطه دمه الشريف على الصخور، وأخذ العوسج الممقوت من خيله جلباباً داميًا. ولما وصلت إليه ناديته فمد إلي يده وفتح عيناً مائتة ثم أطبقها فجأة، وقال: «قضى الإله بأن ينزع مني حياة بريئة فارغ بعد موتي «أريسي» الحزينة البائسة بعين عنايتك أيها الصديق العزيز، وإن تبين الرشد من الغي لأبي يوماً ما ورثي لمصيبة ابن اتهم كذباً وظلماً فقل له إن أراد أن يلطف دمي وخيالي الشاكي فعليه أن يرأف بأسيرته ويعاملها بالرقّة والحنان ويرد إليها ...» وعند هذه اللفظة أسلم الروح هذا البطل، ولم يترك بين ذراعيّ إلا جسمًا مشوهاً ممثلاً به. فيا لمسكين يرثي له ظفر به غضب الآلهة حتى إن عين أبيه تنكره.

تيزيه: وا ولداه! وا أسفا على أمل عزيز فجعت به! يالآلهة لا يسكن غضبها ولا ترحم قلوبها ومن استعبدتني أمداً طويلاً! مدت في حياتي لتذيقني هذه الحسرات القاتلة!

